مكتبتنا العربية

الموسوعة الصغيرة
٨٧

شعر الحرب عند العرب

تأليف
د. نوري حمودي القيسي

الموسوعة الصغيرة

سلسلة ثقافية نصف شهرية تتناول
مختلف العلوم والفنون والآداب
تصدرها دار الحاحظ للنشر

رئيس التحرير: موسى كريدي

الكتاب القادم .

مقدمة في علم الآثار

تأليف د. تقي الربّاغ

السعر ٥٠ فلسا
دار الحرية للطباعة - بغداد

مكتبتنا العربية

شعر الحرب عند العرب

د. نوري حمودي القيسي

منشورات دار الجاحظ للنشر

شباط ١٩٨١ الجمهورية العراقية

الدكتور نوري حمودي القيسي

- ولد في بغداد ١٩٣٢ . تخرج في كلية الاداب /جامعة بغداد ١٩٥٤ ونال رتبة الماجستير والدكتوراه من جامعة القاهرة ١٩٦٤ ، ١٩٦٧ .
- حقق ودرس اكثر من ثلاثين ديواناً من الشعر العربي قبل الاسلام وبعده والعصر الاموي والف اكثر من عشرة كتب منها ، الطبيعة في الشعر الجاهلي والقروسية في الشعر الجاهلي ودراسات في الشعر الجاهلي ووحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية ونظرات في النقد والادب والاديب والالتزام والشعر والتاريخ وشعراء امويون بثلاثة اجزاء ومنهج تحقيق النصوص
- ونشر له بحث في المرسوعة الصغيرة بعنوان (ملامح من الشعر القصصي في الادب العربي يحمل الرقم ١٧١)
- استاذ الادب القديم في كلية الاداب بجامعة بغداد .
- عضو المجمع العلمي العراقي والامين العام له .

مكتبتنا العربية

تمهيـــد

من الصور التي استهوت العـرب ، وتركت في نفوسهم الاثر الواضـح ، صـور الحـرب ، وما خلفته من الوان تناثرت فوق مظاهرها المرعبة، وملامحها الملتهبة ، ولم تكن الحـرب باشكالها المختلفة وجوانبها المؤلمة محببـة الى العـربي على الرغم من قـوة الحياة وصعوبة البيئة واحتـدام الصراع ، لانه كان يجد فيها جناية كبيرة ومآسـي موجعة يتحملها الانسـان ، وتتحول في ظلها الحياة الى صور مرعبة واشكال مخيفة ، واذا قدر لهذا الانسـان ان يخوض غمارها ويقتحم دروبها فلانـه اضطر اليها ، واجبر على ركوبها بعد ان وجـد نفسه يتعرض للتحدي ويقف امام خيارين لا ثالث لهما ، اما الحياة الكريمة او الخضوع لارادة القوى الباغية التي كانت تسعى لاستغلاله والسيطرة عليه واستثمار ثروته وجهوده ؛ وهذا ما كان يدفعـه الى ان يظل متوثبا ومتحفزا ، وهذا ما كان يحمله ايضا على ان يظل محتفظا بسلاحه وكل الاسباب التي تحقق له الانتصار وتدفع عنه شبح السيطرة

وتبعد عن ارضه نوازع الشر . ومن هنا كان حديثه الشعري عن الحرب ملازما للعناصر الاساسية التي تحسم الحرب لصالحه من خلال وقوفه على وصف هذا السلاح وتهيئته وتمجيده واعتباره بضعة من نفسه وجزءا من حياته وعنصرا هاما من عناصر وجوده ، وان هذا الاهتمام كان يدفعه الى متابعة انواعه وصناعته ومن عرف بصقله وتقويمه .. وقد شغل هذا الجانب مساحة عريضة من مساحات البيئة الشعرية التي كان يتحرك فوقها الشاعر . والشاعر الذي وضعت القبيلة ثقتها فيه ، وحيات له اسباب الشهرة ، وبواته المكانة المرموقة كان الواجهة الاعلامية المعبرة ، والصوت الشعري الرائد الذي ينطق بالمآثر ويحمل لواء الانتصار وهو يشيد بالايام ويذكر الخوالد من المواقف ويؤدي مهمته الشعرية على الوجه الاكمل، وليضيف الى مجد قومه امجادا جديدة ، ويرفد روافدها الانسانية بعطاء محمود ، وقد استطاع توظيف شعره لهذه المهمة بجدارة وقدم لديوان الشعر العربي ما اغنى عطاءه ، وترك آثاره البارزة ولم تقف الحرب عند خصائصها القتالية وانما كانت المدرسة التي يتدرب فيها الابناء على ضروب الحياة ويمارسون الخصائص الكريمة التي كانت

تفرض عليهم الوفاء بكل القيم الاجتماعية والتربوية الخيرة من مروءة وتضحية ونجدة وشجاعة وكرم والمثل التي حافظوا عليها من خلال تجربتهم في الحفاظ على العهد والوفاء بالوعد واعانة المحتاج ومساعدة الضعيف والاحسان الى من يُحسن اليهم وقد بقيت هذه المعاني تصب في رافد الحماسة الذي تلازمت فيه القيم الخيرة والمبادىء الانسانية التي وجدت في الشعر طريقها ، وعرفت في معانيه السامية دروبها الرفيعة .

اما الانصاف الذي التزم به الفرسان فكان جانبا اخلاقيا آخر تميزت به الروح العربية ، وتلمست خصائصه في سلوكهم مع اعدائهم ، واعترافهم بقدرتهم على الرغم من كل الاسباب التي تفرض عليهم الظهور بغير هذا المظهر ، ولكن التربية الاصيلة والوفاء الانساني والثقة الكبيرة بالنفس كانت تفرض عليهم هذا السلوك الذي ظل علامة من علامات مجدهم وعزتهم ووفائهم .

وشعر الحرب الذي كتب عليه ان يظهر في هذه المرحلة يمثل قدرة (الامة) العظيمة التي كانت صورة للمجد الانساني العظيم ، وقدرة خلاقة من قدرات الابداع الفذ وصوتا مخلصا من اصوات الحقيقة الرائعة التي قدمت وما تزال تقدم لكل

الخيرين عطاءها الثر ومجدها البطولي الكبير ، وسيظل زهو جده (الامة) ينبوعا ثرا من ينابيع الاقتدار ، وملحمة من ملاحم الخلود الذي يعيش في كل نفس ويحيا مع كل خفقة ويتحرك في اتجاه كل عمل عظيم .

الدكتور نوري حمودي القيسي

مكتبتنا العربية

شعر الحرب عند العرب

القسم الاول

الدفاع عن النفس حق مشروع ، والحرص على الحياة نزوع انساني طبيعي ، والرغبة في امتلاك الحرية والتمكن من ناصية الاحداث لازمة من لوازم الحياة التي ظل الانسان يدافع عنها ويحرص على الاحتفاظ بها ، ويبدي كل الاساليب التي تجيز له الوصول اليها . وقد عاش الانسان منذ أن عرف الحياة وادرك سر وجوده فيها ، وتحقق من الكيفية التي يمكن ان تكيفه في مجال واقعها ، يسعى من أجل تطمين تلك الحاجات والوقوف على الاسباب الحقيقية لها لياخذ قسطه منها ، ويوفر لنفسه ما يمكن ان يوفره لها ، وكان لابد لهذا الانسان من الحصول على بعض ما يمكن أن يحصل عليه من اساليب الاقتدار وادوات التمكن لتكون عاملا من عوامل التسريع في تحقيق الغرض ، والتعجيل في تلبية الطلب ، ويظل تاريخ الامم في مراحلها الاولى سجلا لماضيها الذي تستمد منه قدرتها ، وتستل من مفاخرها ما يغني حياتها

ويرفد تجربتها ويحقق لها الموقع الذي تنشده في حياتها . وتظل الاحداث التي خاضتها تضم روائع المشاهد ، وبدائع الصور ، وضروب التضحية لبطولات رجالها وابنائها ونسائها الذين استطاعوا ان يطبعوا ملامحهم باصرار ، ويطرزوا سجلها ببراعة ، ويرفعوا آيات مجدها بفخر وهم يكتبون الصفحات البيض ، ويخلدون العزائم المواضي ، ويظل الابناء البررة يجدون في تلك الاعمال اسباب الاندفاع لتحقيق الخلود الذي حققه الاباء والاحفاد، يشعرون بالنشوة ، ويتذكرون البطولات باحساس التكريم . ولم يكن الشعراء وهم يرون هذه الملاحم بعيدين عن رؤية هذه الوقائع وتصوير تلك البطولات وتخليد نماذج التضحية حتى اصبح شعرهم صورة لصيحات المجد وصدى للمآثر الحميدة ، وديوانا حافلا لما قدمه كل بطل من ابطالها وهو يحاول ان يقدم العمل الفذ ، ويكون النموذج المتقدم ، ويحقق الهدف الذي يتوق اليه الجمهور . وقد استطاع الشعر عند كل الامم ان يؤدي هذه المهمة ، ويتابع تلك الاحداث ، ويسجل دقائق الوقائع وابعادها القتالية التي كانت تتاثر بالاهتمام تتحول الى ملاحم تتعالى فيها اصوات السلاح ويزدحم بين سطورها ضجيج الفرسان وتتهاوى في ظل قوافيها الصروح والقلاع وتتصاعد

السن الدخان ويختلط غبار الوقائع بشحوب الاصيل الذي يصطبغ بالدم ، وتغوص اقدام الخيل او عجلات الدراعات باكداس القتلى وتنحدر الشمس مشرقة ضاحكة في وجوه الابطال الذين يحققون الانتصار وتتوارى غائبة كاسفة في عيون المنهزمين الذين لا يجدون انفسهم قادرين على مواجهة الرجال فتلفهم الوديان الموحشة والشعاب المتناثرة والشقوق البائسة . وفي هذه المواقف تتالق روائع الانتصار وتزهو بوارق السيوف ، وتشتجر موانى الرماح لتلتقي عند القصيدة الخالدة والقصة البطولية الهادفة والملحمة القتالية الفذة . ولم يبتعد الشعراء وهم يذكرون صولات الرجال وقراع النصال وتهاوي السيوف وتلاحم القذائف عن خفقات القلوب وهي تتوق للاحبة وتزخر بافانين الحب ، وتتذكر الاعزة وهم يطالعون صبورهم في كل خفقة ، وملاحمهم عند كل بريق ، واصواتهم عند كل انطلاقة تنسل وشائجها من نوهة منجنيق او قذيفة لهب .. الى جانب صور الحنين الاصيل الذي تغنى به المقاتلون الذين ابتعدوا عن ارضهم واهلهم واحبائهم فشعروا بوطاة الشوق اليهم ، وعندها يصطبغ شعر الحرب في هذه المواقف باللمسات الانسانية الحارة وتتلون معانيه برقة الاحاسيس التي تنساب في ثنايا المعاني

فتكسو بدفئها طوايا المضامين ، وما رافق حالات الاغتراب التي افرزتها احداث الحرب من هواجس وداخلها من تطلعات نسجوا من لواعج الشوق احاديث يستطاب بها السمر وتلذ لروايتها الاسماع وتهفو لاخبارها القلوب وهي في كل احوالها ترسم الاطار الترفيهي لجاميع المقاتلين وهم يتحلقون في الخنادق او يلتقون في ظلال الاسوار ، أو يتزاحمون عند اشتداد القصف في المنحنيات التي تقيهم تطاير الشظايا واشطار القذائف .

ولم يعدم الشعراء كذلك القدرة الادبية المتميزة التي كانت تعطي كل حركة من حركات الحرب لونا وكل بعد من ابعادها صوتا يتناسب مع اهمية الحديث وينسجم مع وقع الخبر ولم تبدو نماذج الشعر وهي تعبر عن الانفعالات الحقيقية للروح الاصيلة التي تزخر بها قلوب المقاتلين من مظاهر الفن البلاغي المتميز الذي يضفي على كل لوحة من لوحات الحرب ضربا من ضروبه البيانية او البديعية تتزهر في عيون المعاني صور المجد ، وتلمع في ظلال البطولة خوارق التضحيات لتتحول في اناشيد الابناء الى زهر متجدد ، وتصاغ في عيون الاطفال احلام مجد مستقبلي مشرق واغاني انتصار تبقى روعتها رائقة في كل حديث ، طرية عند كل استشهاد ، وتظل

هذه الهدهدات وهي تطوي جوانح المؤمنين بروعة امهم ورسالات شعوبهم مدعاة لاستثارة الهمم ، واناشيد عز تموج بها نوازع الشباب ويبقى الابطال الذين صارعوا قوى البغي وجالدوا جحافل الظلام رموزا للانتصار ، ونماذج تقتدي بها الشعوب عندما تحيق بها الكوارث وتنزل بها الاحداث وتضطر مكرهة لخوض غمار الحروب .

ومن هنا كانت كل الملاحم التي سجلتها الشعوب صورا لوقائعها او تعاريف بابطالها الذين تغنت الملاحم بامجادهم وبما تفردوا به من اعمال وحققوه من انتصارات فكانت ملحمة كلكامش والالياذة والاودية والملحمة الجرمانية والمعروفة باغاني ارض الظلام والتي عرضت لاحداث مغامرات بطلها (سيجفريد) في ارض (النيبيلونك) وايام العرب التي بقيت اعلام شخوصها تزور ردهات التاريخ وتقف على عتبات العصور وتعطي ابناءها قدرة القتال ، وتغني حياتهم بمعاني البطولة وتمنح شعوب الارض الشعور بالسعادة عندما تتسامى رايات النصر ، وتخفق بيارق التضحية ، وتتقدم الوية الاقتحام للدفاع عن قضية عادلة ، وتحرر الانسان من الظلم والاضطهاد ، وترفع الحيف عن الارض التي تطويها مظالم العبودية والقهر .

ومثل ما ظلت شخصيات كلكامش مثار اعجاب السومريين والبابليين وبقية الامم الاخرى فقد تالقت اسماء ابطال آخرين في اداب العالم نسبت اليهم اعمال جليلة فكان [هرقل] و [آخيل] و [الاسكندر ذو القرنين] و [البطل اوديسيوس] وغيرهم ممن حفلت بهم آداب العالم. وفي أدبنا العربي كانت صورة شمريهرعش وسيف ابن ذي يزن وعنترة وعمرو بن معد يكرب وعامر بن الطفيل وقيس بن زهير وغيرهم ممن كتب لهم الخلود في عالم البطولة قبل الاسلام ، تمثل البطولات التي بقيت تشير الى اعتزاز العرب بالدفاع عن المكارم وتسجيل المآثر وتخليد الاعمال التي تستحق ان تبقى موروثا كريما تتناقله الاجيال وتعتبره جزء من حياتها .

وشعر الحرب عند العرب كان صورة متميزة لانه واكب احداثهم وعبر عن امانيهم ومطامحهم المشروعة وهم يتسابقون فيميادينها الواسعة ، ويخوضون لهيبها المستعر وان اشعارهم التي احتوتها ايام العرب وقصائدهم المشهورة واختياراتهم الموفقة تشكل الملحمة الكبيرة التي تستحق ان تعاد صياغتها وتوحد اغراضها وتنسق مضامينها ، لان خواطر الشعراء متقاربة وصورهم الفنية متماثلة واحاسيسهم التي كانوا يعالجون

موضوعاتها متصلة من حيث التناول او المعالجة او النسج سيما وان كثيرا منها يمثل الفروسية ويذكر الحروب والايام ويسجل ذكر الابطال والاعمال ويصور الخوالد منها والخوارق من تضحياتها والطرائق المستخدمة وضروب المناجزة وفنون القتال واساليب التصدي والهجوم ، وان الاعداد الكبيرة من الابطال الذين ملات اخبارهم الكتب ، وحيكت حولهم الاقاصيص وتناولت اعمالهم الروايات يمثلون الصفحات البطولية التي بقيت في اذهان الناس على الرغم من كل ضروب المبالغات التي أحاطت بها أو زينت اخبارها .

فالتجارب الكثيرة التي خاضها الشعراء الفرسان ، واظهروا فيها قابليات رائعة الهمتهم الدقة في الوصف ، والحس في التصوير والاجادة في التركيب الشعري والقدرة على معايشة الاحداث ، والحرب بكل اشكالها كانت محورا اساسيا من محاور الحياة العربية قبل الاسلام لان العرب كانوا من خلالها يحققون وجودهم ، ويحافظون على مواقعهم عندما كانوا يتعرضون لتهديد الدول المجاورة من الفرس او الروم او الاحباش ، والمعروف ان تاريخ هذا التهديد كان يمتد الى القرن الثالث للميلاد حين بدات محنة روما بشكل واضح وحين بدات مطامع الفرس تمد

راسها من خلال ذراع الدولة الساسانية بعد أن تويت شوكتها وتصلب عودها وبعد ان تحرك مؤسسها (اردشير) الى مناهضة روما ليفتح ابواب الصراع الدولي امام القوتين الكبريين بدا حكامهما يتلاعبان بمصير الشعوب ، وقد ازدادت مطامع الفرس بعد أن استطاعوا سحب ارمينيا من دائرة النفوذ الروماني واخضاعها الى سيطرتهم مستغلين الاوضاع السيئة التي كانت تسود روما ، والصراعات الداخلية التي تأخذ بخناق الامبراطورية التي كانت تعيش وضعا لا تحسد عليه .

لقد مهدت هذه السيطرة للفرس التوجه الى الارض العربية في سوريا ليتخذوا منها ميدانا جديدا للصراع في الشرق العربي بعد أن وجدوا انفسهم قادرين على مثل هذا التوجه محققين بذلك مجموعة من الاهداف العسكرية والتجارية والسياسية وبعد أن تصبح المنافذ الساحلية الشرقة على الجانب الشرقي للبحر الابيض المتوسط تحت نفوذهم ، ولكن احلامهم هذه قدتبددت بعد ان ردوا على اعقابهم وجوبهوا بمقاومة عنيفة من قبل (اذينة) حاكم تدمر وبهذا استطاعت سوريا ومصر ان تتخلص من الغزو الفارسي المقيت الذي كان يضمر لهما الشر وعندما لاذت جحافل الفرس

بالفرار وهي تجر اذيال الخيبة والخذلان سحبوا معهم ذيول الصراع الى العراق ليجدوا في هذا القطر العربي مجالا جديدا يمدون منه سلطانهم الى الجزيرة العربية .

ان جو الاطماع المستمر الذي احاط بالمنطقة ظل شبحا مخيفا بالنسبة لشعوب هذه المنطقة بعد أن بدات اشكال هذا الصراع تتسارع للاستحواذ والسيطرة وبعد ان وجد كل طرف منها ان مصلحته تتحقق في حالة السيطرة او النفوذ ، وان هذا الوضع قد هيا امة العرب الى ان تظل حذرة يقظة تقدم من ابنائها وقودا للحرب التي تثيرها مطامع هاتين الدولتين وتبذل في سبيل الحرص على وجودها ما يمكن ان تبذله لتظل امينة على حياتها ، وقد حقق لها هذا الاستمرار في التضحية والدفاع من اجل الارض حياة تنعم في ظلها بالعز ومستقبلا تفخر به في مواطن الفخر كما ترك لهم تراثا وفيرا من المحامد والمآثر التي تمثل الخزين الحقيقي لعوامل الاندفاع والمثل العظيمة التي يستلون منها نماذج التضحيات . ومن الطبيعي ان ينشأ العربي الذي ظلت حياته تزخر بهذه الامجاد، وحياته تحفل بهذه المواقف وقد توحدت امامه صور الحياة الكريمة ، وتالقت في نفسه لوحات الشرف الناصعة التي لم تترك مجالا للتنازل عنها

او الميل عن خطها الانساني الذي يؤمن بكل القيم الخيرة التي تربى عليها ونشا في ظلها وعبر في كل اساليب حياته عن الدفاع عنها . ولابد ان يدفعه هذا التصور الى استرخاص الحياة دفاعا عن الشرف واستهال الموت ذودا عن الكرامة لانه يؤمن بان الاقدام في الحرب لا ينقص عمر المتقدمين، وان الاحجام عنها لا يزيد عمر المتاخرين وبان الذي يطلب الموت توهب له الحياة وان الميتة الحقة هي التي تكون في خضم المعركة لينال البطل بعدها شرف المعالي ، ويكسب فخرا يضيفه ابناؤه الى مفاخرهم ، ويظل ذكره نشيدا تترنم به الاجيال من بعده وكان فلسفة الحياة عند العرب قد تحولت الى عالم التضحية التي وجدوا فيها كل مباهج الدنيا ومتع السعادة لانهم كانوا يؤمنون ايضا بان الانسان قادر على ان يجعل حياته زاخرة بكل الاطايب ، يلهو كما يلهو الآخرون ويقبل بما يقبل به القانعون ، ويقف من احداث الحياة (كما يقف البعض) وكان الاحداث لا تمس اطراف ثيابهم او تنوش شغاف حسهم . هذه النفس لا يمكن ان تخلد الا اذا كانت قادرة على البذل ، والا ظويت مثل ملايين النفوس التي عاشت وماتت ولم تترك لها ذكرا يحمد ، وكانها لم تكن ، وكان الدنيا لم تجد لها ظلا فيها ، فما الفرق اذن بين النفسين

وما هي السمات التي يمكن ان تطبع على الحياتين، وما هي المآثر التي يمكن ان يخلفها كل من هذين الانسانين اللذين نزلا الى الحياة فاكتسبا تجربتها وقنعا بواقعها ولكنهما اختلفا في تقدير النتائج المترتبة على النهاية التي انتهيا اليها ؛ وكان عروة ابن الورد واضحا في تصوير هذه الفلسفة حينما قال :

دعيني اطوف في البلاد لعلني
افيد غنىً فيه لذي الحق محمل
اليس عظيما ان تلمّ ملمة
وليس علينا في الحقوق معوّل
فان نحن لم نملك دفاعا بحادثٍ
تلمّ به الايام فالموت اجمل

وفي حديث آخر يقول :

ارى امّ حسّان الغداة تلومني
تخوفني الاعداء والنفس اخوف
تقول سليمى لو اقمتَ لسرّنا
ولمْ تدرِ اني للمقام اطوّف
لعلّ الذي خوّفتنا من امامنا
يصادفه في اهله ، المتخلف

فالنفس الكبيرة هي النفس التي تخدم الآخرين وتستجيب لنوازع الخير ، وتدرك ان الخلود في تضحيتها ، وان الموت في كونها نفسا لا تتجاوز النفوس الاخرى ، وبذلك تسقط في مدارج النسيان ، وتهوي في مهاوي العدم ، وتنحدر الى الاماكن التي لا تذكر فيها .

ومن هذا التفكير كانت تنطلق كل الاعتبارات، وتتحدد معظم الاتجاهات وهذا ما كان يجعل نفوسهم كبيرة لا يعرفون من الدنيا الا خلودها ، ومن الحياة الا عزها وابائها فعاشوا اعزة في اوطانهم بعد ان اخذوا مواقعهم في عالم التضحية والجراة ، وقد اهلتهم هذه الصفات الى ان يعطوا لكل بعد من ابعاد الشجاعة ما يجعله اكثر قدرة على التعبير لابراز هذا البعد او ذاك منتفعين من الاشارات المثيرة التي وجدوا الاعجاب بها ياخذ شكلا متميزا حتى اصبحت هذه الخصال جزء من حياتهم فتلونت بانماط الجراة واصبحت اتجاهاتهم تمثل التضحية والاقدام والدفاع عن كل القيم النبيلة التي التزموا بالدفاع عنها ، وترسخ في ذهنهم بان الموت على الهيئة التي صوروها او تخيلوها او ارادوها لا يمكن ان تكون محمودة الا اذا كانت تضحية جريئة وقد عبر عنها عروة بن الورد حين قال :

ذريني اطوف في البلاد لعلّني
اخليك او اغنيك عن سوء محضري

فان فاز سهم للمنية لم اكن
جزوعا وهل عن ذاك من متاخر

ويقول في قصيدة اخرى :

وان المنايا ثغرّ كل ثنيّةٍ
فهل ذاك عما يبتغي القوم محصرُ

وغبراءَ مخشيٍّ وداها مخوفة
اخوها باسباب المنايا مغرّر

قطعت بها شك الخلاج ولم اقل
لخيّابة هيّابة كيف تامر

ولعل هذا النمط اصبح الشعراء ينهجونه مسلكا من مسالكهم ، ومذهبا من مذاهبهم يبشرون به وينشرون فضائله حتى قال عروة مرة اخرى :

عجبت لهم إذ يختقون نفوسهم
ومقتلهم تحت الوغى كان اعذرا

ومن هذه المواقع كان الشعر العربي في بعض جوانبه صورة من صور الحرب التي تقف فيه عند المواقف الشجاعة وتشيد من خلاله باسباب البسالة

والاقدام او تستثير العزائم او تمجد الرجال الذين يبلون فيها البلاء الحسن الى جانب الموضوعات الاخرى التي يرثى فيها الشعراء الرجال الذين يقدمون النفوس رخيصة وهنا يستقل شعر الرثاء بجوانب كثيرة يمكن حصرها في باب الحماسة لان الرثاء فيها يتصل بعد ان يعرض الشعراء للمآثر المحمودة وينفرد بندب الابطال في حومات القتال والشعراء في هذا الباب يميلون الى تعداد المناقب والاشارة التي احتفظ بها المرثي وهم لا يغفلون الدعوة الى الاقتداء به والحرص على السير في الطريق الذي مات من اجله بعد ان تختلط صور الاعجاب بعبارات التمجيد ، وتتداخل معاني الخلود بمضامين الفخر لتنتهي الى النهاية التي يصير اليها كل الناس وفي ذلك يقول لبيد :

انجزع مما احدث الدهر بالفتى
واي كريم لم تُصِبْهُ القوارعُ

ومثل ما كانت ابواب الرثاء تندفع لتعبج جزء من شعر الحرب فان شعر الهجاء والمدح والفخر والغزل كلها يمكن ان تدخل هذه الابواب عندما تتعرض لأوصاف الرجال ومواقفهم ؛ وللحديث عن كل خصلة من خصالهم التي تمجد عملا او تذكر عيبا او تقف عند مأثرة او مكرمة .

فهجاء الخصوم ونشر صفاتهم التي تخرجهم عن دائرة المدح وذكر جبنهم وفرارهم وعدم تحليهم بالخصال الحميدة وعدم التزامهم باطعام الجائع او تخليهم عن اعانة المحتاج او العاني ، او تنازلهم عن إيفائهم بحقوق الجيرة كلها يمكن ان تدخل في باب الحماسة وعندها تصبح قصائد الشعر تنوات اذاعية مفتوحة تجوب اطراف الجزيرة وهي تتحدث بالصفات مرذولة او محمودة ، وبالرجال الذين يضيفون الى مجد قبائلهم مجدا جديدا ، او يفقدونها من المآثر ما يجعلها غير قادرة على ان تقف مع القبائل الاخرى اذا ذكرت المناقب او تحدث عن المحامد .. وهذا ما كان يشير اليه المسيب بن علس في قوله :

فلأهدينّ مع الرياح قصيدةً
مني مُغَلْغَلَةً الى القعقاع
ترِدُ المياه فما تزالُ غريبةً
في القوم بين تَمَثُّلٍ وسَماعِ

فالشعر كان اسلوب التعبير عن الحرب والشاعر يمثل القدرة التي تصوغ الاسلوب وتعبر عنه وتضفي عليه من الوجدان ما يترك له قدرة التحرك واستساغة السماع وقبول التذوق وبهذا

يصبح الشاعر لسان القوم يحمل امانة التعبير ويعد وسيلة الدفاع وينشد صوتها الاعلامي ويذكر مفاخرها التي تعبر كل الحدود ولا تحول دون انتقالها الحواجز ومن هنا كانت القبائل تعتز بالشعر لانه سجلها الحافل ، وتاريخها البطولي وهويتها القومية واثرها الخالد الذي يبرز مآثرها وسلاحها الذي يرد عنها طعون الاعداء ويقوي في نفوس ابنائها العزائم .

ومن هنا ايضا كانت القبائل تضع الشاعر في مواضع متقدمة لانه يحمي عرضها ويذب عن احسابها ، ويخلد مآثرها ، ويشيد بذكرها وقد تجلت هذه الاهمية في فصول بعض الكتب التي افردت ابوابا لفضل الشعر والرد على من يكرهه واحتماء القبائل بشعرائها وتنقلهم بين القبائل . وقد دفع هذا الاهتمام الناس الى الاحتفاء بالشاعر فكانت القبيلة اذا نبغ فيها شاعر اتت القبائل تهنئها وصفت الاطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر ، كما يصنعون في الاعراس ، ويتباشر الرجال والولدان ، وكانوا لا يهنئون الا بغلام يولد، او شاعر ينبغ او فرس تنتج .

لقد امدت الحروب الشعراء بمعين ثرّ ، وهيأت لهم المجالات الواسعة للانطلاق بمواهبهم

الشعرية بشتى نواحيها ومختلف اتجاهاتها ، فكانت حافزا قويا ، ومصدرا خصبا من مصادر الالهام ، اثارت في نفوس الشعراء مختلف الاحاسيس والعواطف ، فانابت على الشهم اغاني عذبة ، واناشيد رائعة ، وفي غمرة اصطلائهم بنيران الحروب وغشيانهم معمعات الوغى ، تتفجر نفوسهم شعرا حماسيا بليغا ، فتتجاوب مع اصدائه الحان الفخر ، وملاحم النصر . وتنثال المعاني على السن الشعراء انثيالا يدفعهم الى قول الشعر بعد أن توسعت آفاق النظم امامهم ، وخلقت لهم الميادين الرحبة للتعبير فاناحوا يشيدون بمفاخرهم ويتغنون بانتصارهم .

لقد كان شعر الحرب اقوى ما نظم الشعراء وانقاه ، لانه يتصل بالامة فيضم مجد ماضيها الى عزة حاضرها ، وهو وحده سجل فخرها وعنوان باسها ، ونشيد بطولتها ، لانه صور باس الابطال في ساعات اللقاء الحاسمة ، ورصد اللحظات الدقيقة التي عاشتها النفوس وهي تمتحن في اعز ما تملك وتمثل على شفاه الفرسان في زحمات التلاحم فكان صوتا من اصوات الهمم ، ولونا من الوان المنازلة الشديدة التي ملأت اوصافها اغلب معاني اللغة فكان الفخر بالبطولة والفروسية ،

وقديم الايـام من مظاهر شعرهم الحـربي وكانت القصـائد التي تتمدح بذكر الشجـاعة في القتال والبطولـة في المعـارك من ابرز اغراض الشعر العربي قبل الاسلام ، وكانت لابواب الحماسـة المكانة الاولى في منتخباتهم لان العرب بها احفى ؛ ولهـا اروى ، ولان شجـاعة العـرب ومآثرهـم الحماسـية المـع سجاياهم واعرق ما فيهـم من الصفات .

القسم الثاني

ان متابعة شكل المجتمع العربي قبل الاسلام يتحدد في مظهرين اساسيين هما المظهر الجماعي المتمثل باجتماع القبيلة واتفاقها على الصيغة المقبولة في التعامل والخضوع لما تفرضه ضوابطها وتؤكده نوازعها وتلتقي عنده مصالح ابنائها ؛ والمظهر الفردي الذي يحقق لهـذا المظهر قدرة التميز ولكنه لا يبتعد في مضامينه عن المظهر الاول؛ وانما تتحد فيه صورة الفرد بصورة الجماعة ؛ وتتوحد قدرته في اطار الكل الذي يحتـوي هـذه النزعة ؛ بعد ان يصبح مسؤولا عنها في كل حركة ، وداخلا فيها عند كل مسالة ، ولعل بيت دريد بن الصمة يكشف عن هذه الدائرة الكبيرة التي يتحرك فيها الانسان العـربي على الرغم من كل اشكال السلوك الفردي الذي كان يمارسه :

وهل انا الا من غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ

غويتُ وإنْ تَرْشُدْ غزيةُ اَرْشُدِ

فالارتباط القبلي الذي يشكل الحلقة الاولى في نظـام القـوم والاحـساس بالانتمـاء كان مظهرا متميزا من مظاهر الحيـاة ، وصـورة من صـور

التعامل ، وانتماء له جذوره في تكوين الفرد وسلوكه وتصرفه وتحديد علاقتـه بالآخرين ، ولابد لهذين المظهرين من ان ياخذا مساحتهما في كل صراع أو قتال أو التحام لانهما يشكلان العناصر الفاعلة في تجسيد الحالة الجديدة التي تفرزها طبيعة القتال بعد ان تجـد القوة طريقا الى تحـديد النتائج والانشداد الى الجمـاعة والدخـول في دائـرة المسؤولية عاملا حاسما من عوامل تحديد الموقف الذي يمكن ان يحدده لنفسه هذا الانـسان ووسط هذا المجتمع الذي امتزجت كثير من عناصره بمظاهر القوة ، وتحـددت أسباب وجـوده بوسـائل استمرارها ، وان الاعمال التي يقدمها هذا الانـسان في كل جانب من جوانبها تتعاظم صورتها في حدود الدائرة التي حددتها كل عناصر هذا المجتمع بعـد ان حققتها أسباب سلامة التمكن ، وميزتها اسبقية الموضوع ، وساهمت في اخراجها قدرة الاختيـار المناسب ، وجراة الاقدام المتحقق وبعد ان احيطت اطرافها بما أعاد اليها وجهها الانـساني ، والنزعة الجماعية المتوافقة مع القدرة الجـدية والتوقـد الذهني والممارسـة الحية التي تترك لكل قبيلة في اطار تحركهـا القومي لون الشهرة وضرب انتزاع دواعي الاعجاب .

لقد عودت الحياة الانـسان على ان يكون قويا،

وحملته على أن يمارس كل الاساليب التي تجعله قائما بما يؤكد في نفسـه من أسباب هذه القـوة لانه كان يدرك ان الضعف في حد ذاته فناء ، وان الهزيمة التي تكتب عليه في كل معركة تعني خضوعه لكل عوامل الاستخذاء ، وارتماءه في مهاوي الذل، وقبوله بكل ما تفرضـه عليه ارادة المنتصر مهمـا كانت هويته وقد دفعه هذا الشعور الى ان يظل دائما في حالة توثب ، وان تظل اسلحته مهيأة ، قادرة على الرد الحاسم ، وان تبقى عناصر وجوده وصلات ارتباطه بمن يشعر بوجودهـم القـوة الحصينة ، وعلى قدر من الاستعداد . وقد حفلت صور الشعر بهذه المظاهر التي عبر من خلالهـا الشعراء عن الاندفاع وراء النصر ، والتفاني من اجل تحقيقه والدفـاع عن وجـوده والاحتفـاظ بصلاته والاحلاف التي يرتبط بهـا ، وما يترتب على هذه الصلات من تقاليد لتبقى محتفظـة بكل مقوماتها ، ولتظل عناصر شدها قائمة .

ان هذه المعاني التي حرص على الالتزام بها هذا الانـسان كانت ممثلـة في ابـواب الشعر واتجاهات الشعراء ، ودلالات المعاني التي وقفت عند كل معنى فكانت ابواب الحماسة موزعة بين الانفة والامتناع عن الضيم وركوب الموت خشية العار ، والتشمير عند الحـرب ، وذم الفـرار

والتعبير به واستطابة الموت دفاعا عن الشرف ، وذودا عن الارض وتضحية من اجل مثل كريمة وقيم خيرة وغيرها من الابواب التي مجدت الموت وعززت اسباب الحياة الكريمة ، واستهانت بكل تضحية جريئة وصولا الى الهدف السامي والمقام الرفيع وقد ترك لنا كل يوم من ايامها مادة كبيرة وقصائد مثيرة اذا ضمت الى اليفاتها من القصائد شكلت ملحمة متميزة (فيوم الردهة) كان يوما مشهودا ذاقت فيه قيس القهر والويل ومثله « يوم النقراوات » و (الرحرحان) و (جبلة) وهي أيام شهدت حروبا طويلة ، واياما عصيبة تناولها الشعراء من كل جوانبها وقد انصب جل فخرهم وحماستهم على مدح قبائلهم والاشادة برجالاتها وانتصاراتها الى جانب المفاخر التي كانوا يتغنون بها حين يقفون على وقائعهم ولقاءاتهم في كل جانب من هذه الجوانب تتجلى صورة ، وتائلق مكرمة ، وتبرز مأثرة يتخذ الشاعر منها جسرا لينتقل الى مدح قومه والاعتزاز بهم وهم يقفون لاعدائهم الموقف الحاسم ويرتفع صوت الشاعر المقر البارقي وهو يشهد بعض هذه الوقائع فيصف ايامها المشهودة ، ويذكر من كان فيها من الرجال وكيف كانوا لا يابهون للامر وقد اعدوا للحرب عدتها ، فكانوا يطربون بالنصر الذي سيكون لهم وهم يصبحون

اعداءهم بكتائب تضرب الهامات ، ويهوي فيها الفرسان باسلحتهم على الخصوم كالبزاة الكواسر ...

امن آلِ شعثاءَ الحمولُ البواكرُ
مع الصبح ام زالت ــ قُبيلُ ــ الأباعرُ
وحلّت سليمى في هضابٍ وأيكةٍ
فليس عليها يومُ ذلك قادرُ
فالقت عصاها واستقرّت بها النوى
كما قرّ عيناً بالإيابِ المسافرُ

الى ان يقول :

وقد رجّعت دودان تبغي لثارها
وجاشت تميم كالفحول تخاطرُ
وقد جمعوا جمعاً كان زهاءَه
جرادٌ هفا في هفوةٍ مُتطايرُ
فمروا باطناب البيوت فردّهم
رجالٌ باطراف الرماح مساعرُ
كأنّ نعامَ الدوّ باضَ عليهمُ
واعينُهمُ تحت الحبيك خوازرُ

من الضاربين الهام يمشون مقدما
إذا غصّ بالريق اللثها والحناجرُ

ضربنا جميلَ البيض في غمر لُجّةٍ
فلم ينجُ في الناجين منهم مفاخرُ

وكما خلدها المعقر البارقي في قصيدته هذه فقد شاركت دختنوس ابنة لقيط بن زرارة في هذه الحرب وكان لصواب رايها ، وحسن تفكيرها الرّه الواضح بعد ان اخذت هذه الحرب مجرى يختلف عن المجرى الذي ارادته ولكن سدادَ هذا الرأي بعد ان دارت على قومها الدوائر ، قد وضح وبانت حكمته واتضحت وجاهته ، ولم تكن دختنوس وحدها من نساء العرب من وقفت هذا الموقف فللمراة في شعر الحرب مواقف مشهودة ، ولها من الموثبات ما هزت به المشاعر ، واثارت الكوامن ، ورفعت فيه درجة الحماسة ، ودفعت المقاتلين الى ان يخوضوا غمار الحروب ، ويقدموا ضروب البسالة ، ويضربوا اروع نماذج التضحية والفداء.

ومثل ما كانت هذه الحرب مثارا لقرائح الشعراء ومدعاة لانطلاق السنتهم فقد كانت حرب داحس والغبراء ملحمة اخرى وقف فيها الشعراء امثال عنترة وقيس بن زهير والربيع بن زياد وزهير

ابن ابي سلمى والنابغة الذبياني والربيع بن ضبيع وشبيم بن خويلد الفزاري وغيرهم ممن اقتحموا الحرب باشعارهم وسيوفهم وسخروا شعرهم لمصلحتها ولانجاح امر قبائلهم بعد ان يمهدوا للحرب بوسائلهم النفسية من محاولات لتثبيط العزائم واسقاط الهمم واستلاب الثقة بالنفس ونزع القدرة على القتال وتجريد الخصوم من دواعي الفخر بعد ان ينفذوا الى مواضع الضعف ، ومواطن الخلل وفي الجانب المقابل يحاولون تذكير اقوامهم بالامجاد التي سجلها الاباء والاحفاد ويضعون امامهم الصور الكبيرة التي سجلت ، والاعمال الخالدة التي حققت والتضحيات النادرة التي قدمها المقاتلون وهم يدافعون عن شرف القوم وسيادة الابناء وكرامة العيش . وفي كل معنى من هذه المعاني تتزاحم نماذج الفخر ، وتتقارب خصائص الاعتزاز، وتنتشر قدرات الابطال ، بعد ان يمهد لها بما يجعلها موافقة لظروف المعركة ، ولم تقتصر مهمة الشعراء على هذه القصائد التي تتولى هذه المهام وانما تمتد لتاخذ جانب الانشاد اذا احتدم اللقاء والارتجاز اذا حمى الوطيس وتعالى الشرر واشتدت وطاة الاجتلاد ..

وتاخذ حرب البسوس لونا آخر من لون الصراع ويتابق الشعراء لخوض ايامها مخلدين

الابطال الذين شاركوا في احداثها ووقفوا على اخبارها بعد ان عاصروا وقائعها واظهروا من البسالة والاقتدار ما خلد مواقفهم وعزز مكانتهم فكان كليب بن ربيعة وجساس بن مُرّة والحارث ابن عباد وغيرهم ممن اعطى هذه الحرب حقها ، وامدها باحاسيس شعرية صادقة فكان الشعر صورة لاحداثها المختلفة حتى اصبح وثيقة بيد الرواة يدللون بها على صحة الاخبار وسلامة الاحداث وان الشعر العربي ظل قادرا على مواكبة الحرب في كثير من جوانبها منذ بداية كل معركة وحتى انتهائها ومن الطبيعي ان تشتد سورة الشعر وتشتد قوته عندما يتقد اوار الحرب ويتزايد الصراع الذي يحتاج الى الوقود الجزل واللهب المستعر والصورة الحادة والكلمة المؤثرة . وان هذا الشعر كان يتفاوت من حيث كثرته وقلته من واقعة الى اخرى وبسبب اختلاف النوازع والدوافع وان المواضع التي تثير همم الشعراء وتوحي لهم بالاندفاع والاثارة تاخذ النصيب الاوفر لانها تمثل نقاط التكثيف في المجال الشعري، واللقطة الملتهبة في استثارة الحماس وان هذا الشعر الذي كان يحمل معاني التاجيج لم يعدم الجوانب الانسانية التي تخفف من غلواء العواطف وتتجه بها الى الوجهة التي تدعو الى ايقافها لان

العربي كان يحس بما يكابده الانسان من اهوال الحرب . وانه لم يكن مندفعا من اجلها ولكنه كان مضطرا الى خوضها ومجبرا على الدخول فيها وهو يدرك بطبيعته الانسانية ويلاتها ، ويقدر نظائعها وما تجره من اهوال . وفي ابيات قيس بن الخطيم اشارة واضحة الى هذه الحالة عندما يقول :

دعوتُ بني عوف لحقن دمائهم
فلما ابَوا سامحتُ في حرب حاطب
وكنت امرءًا لا ابعث الحرب ظالما
فلما ابوا اشعلتها كلّ جانب
أربت بدفع الحرب حتى رايتها
على الدفع لا تزداد غير تقارب
فإذ لم يكن عن غاية الموت مدفعٌ
فاهلاً بها اذْ لم تزل في المراحب
فلما رايت الحربَ حربا تجرّدتْ
لبست مع البرْدين ثوبَ المحارب

وكان الحارث بن عباد قد تجنب حرب بكر

وتغلب ، لانه يعتقد بان الحرب جناية حتى قتل التغلبيون ثارت حميته فقال :

يا بُجيرَ الخيرات لا صُلحَ حتى
نملأ البيدَ من رؤوس الرجال

وتقرَ العيون بعدَ بُكاها
حينَ تسقي الدما صدور العوالي

اصبحتْ وائلٌ تعيجُ من الحر
بِ عجيجَ الجمال بالاثقال

لم اكنْ من جُناتِها علم الله
(م) واني بحرّها اليوم صالِ

قد تجنّيتُ وائلاً كي يُفيقوا
فابتْ تغلبٌ عليَ اعتزالي

واشابوا ذؤابتي ببُجيرٍ
قتلوه ظلما بغير قتالِ

وقد وصف العرب الحرب بابشع الاوصاف فهي مُرة المذاق غشوم ، وكثيرا ما كانوا يلعنون من يتسبب فيها ويحقدون على كل الرؤوس التي تثير اسبابها او تؤجج نارها او تعمل على استمرارها وهم يكبرون في كثير من الاحيان من يسعى الى

الصلح بين المتنازعين ، ويباركون كل مبادرة توقف نزيف الدم ، وتقطع دابر الذين لا ترعبهم اهوالها، ولا تهمهم النتائج التي تنتهي اليها ، وفي ذلك يدلل العرب على انسانيتهم وشعورهم بالمسؤولية ولكنهم يقدمون عليها عندما لا يجدون مفرا منها ، ولا خلاصا من شرها ، ولا مهربا من اذاها ، وعند ذلك يقتحمونها اقتحام الابطال ويخوضونها خوض الفرسان وقد صور الفند الزماني هذه الرؤية الواضحة التي كانت تتجسد في النفوس فقال :

فلما صَرّح الشرُ
فامسى وهو عريان

ولم يبق سوى العدوا
نِ دناهم كما دانوا

وبعضُ الحلم عند الجهل
للذلّةِ إذعانُ

وفي الشرّ نجاةٌ
حين لا ينجيك إحسانُ

فالناس كانوا يميلون الى السلم ، ويؤثرون العفو مع قدرتهم على تحقيق ما يريدون ، وتمكنهم من الوصول الى الغايات المرجوة . وقد ظلت هذه

المعاني في قصائدهم ، وتاخذ مجالها في حياتهم وهذا ما اشار اليه احد شعراء بلعنبر :

لكن قومي وان كانوا ذوي عـددٍ
ليسوا من الشرّ في شيء وإنْ هانا

يجزون من ظلم اهل الظلم مغفرةً
ومن اساءة اهل السوء إحسانا

ان القيم النبيلة التي سادت حياتهم، والروح السمحة التي صبغت وجودهم كانت تعيش في سلوكهم وتحيا في علاقاتهم وتتردد في وجودهم ، وفي هذه الخصال الكريمة كانت تزدهر معاني الوفاء ، وتزهو دلالات السمو والرفعة حتى اصبحت هذه الخصائص رمزا لكل نموذج من نماذجهم ، ودلالة من ادلة انسانيتهم الحقة .

لقد اكتسب الشعراء العرب وهم يشاركون ابناء قومهم اهوالها ولحظاتها الوصف الدقيق والتصوير الحسن والواقعية في التعبير والمطابقة في الحديث عن الجانبين التاريخي والادبي وقد استطاع هذا الشعر ان ينجز المهمة التي حددها له عصره ، واوكلتها اليه احداثه ، وحققتها لصوره وقائعه ومسؤولياته فجاء صورة واضحة للباحثين، وعطاء ثرا وصادقا لمن اراد ان يقف على دقائق

الاشياء واجزاء التطورات التاريخية ، لما انطوى عليه من ضروب حياتهم والاحداث المتباينة التي تضافرت لخلق القدرة الشعرية والحس الانساني، لان الشعر كان نتاجا اصيلا من نتاجات قرائحهم وعواطفهم وكانوا يفخرون وهم يسجلون لقدراتهم القتالية اروع صفحات الاعجاب ، واسمى آيات النجاح في المضامين الادبية التي تزخر بالحياة النابضة بمعاني التضحية ، كما انهم كانوا يشعرون بالانتشاء والزهو وهم يوظفون شعرهم لمتطلبات المعركة ، وحاجات القتال ، واساليب الانتصار ، كما ان هذا الزهو يتحول الى اعجاب مستديم يفجر في دواخلهم طاقات الشعور الواعية التي تجد في كل تحرك ميدانا من ميادين التفوق ، وايماضة من ايماضات الاندفاع والاقتحام ، والشعراء بعد هذا كانوا يجدون المتعة النفسية الخالصة وهم يسترخصون النفوس دفاعا عن الروابط الصادقة التي تشد ابناء القبيلة الواحدة، وكثيرا ما كانت القصائد الطوال تشق طريقها الى القلوب ، وتتناقلها الالسن لتعبر عن الفداء الغالي من اجل كلمة تمس قيمة من قيمه او تثلب نسبا من انسابه او ذودا عن ارض يطمع في احتلالها غريب او يحاول تدنيسها مغتصب ، او اكراما لشرف يستباح او عرض يهان او امراة تسبى وفي

كل العصور الشعرية تتجلى وحدة الامة التي كانت تشدها القيم الكبيرة وتوحد وجودها الاهداف الخيرة وتعبر عن طموحها اناشيد الشعراء وتراتيل الحرب واهازيج النصر وهو يدفع الجحافل الكبيرة لساحات القتال .

لقد ساهم الشعر الى حد كبير في تاكيد القدرة القتالية من خلال تعابير الشعراء ، وشارك في توضيح الصورة البطولية التي كان يتمثل بها الشعراء وهم يستطيبون الموت من اجل الحياة ، لان المنطق الشعري ظل اداة التوثيق للمنطق القتالي ، وبقيت قوة الكلمة مواكبة لقوة الاندفاع من اجل تسجيل المجد القبلي ، وفي حدود الاطار النضالي الذي تحدده طبيعة التعبير وسلامة اختيار العصور التي تاخذ طريق الانتشار ، لقد كانت اجواء القصيدة تجد صداها في النفوس ، وتتدافع معانيها في الافواه لانها كانت تحمل مجد القبيلة وتعطي صورة التاريخ الحافل ، وتدخل في النفوس بواعث الاعتزاز ، وفي ظل هذه الظواهر تعالت اشعار الحماسة ، وتوقدت نوازع الاتباع في تدقيق اجزائها ، وتفريع اساليبها والقول في كل باب من ابوابها ، لانها كانت تشكل الدائرة الكبيرة ، وتمتلك الوان الاعجاب الذي ظلت دلالاته ترتسم

عريضة في كل موضع من مواضع التفاخر ، وبقيت اصوات تاثيره تمتد الى كل نفس ، فهو صوت الجماعة الذي يعبر عن فكرتها وقدرتها ، وهو نموذج من نماذج مظهرها الحياتي الذي ارتفع فيه مفهوم الدفاع عن كل ما يعود الى القبيلة ، وقد استطاع البطل العربي الذي استوعب حاجات عصره ان يوفق بين هذين الجانبين ويسير في الاتجاه الذي يحقق له هذه القدرة بعد ان ادرك النزوع الذي يمتلك اعجاب ابناء القبيلة وهم يطمحون الى المكانة المرموقة التي تجعلهم في موضع يحقق لهم المؤدد المنتظر . والكلمة المسموعة والمكانة الرفيعة والمفخرة التي يتحدث عنها الجميع . وقد استطاع هذا الانسان بما اوتي من خصائص متميزة ان يدفع واقع القبيلة الى واقع جديد اهلها الى ان تاخذ مكانة تختلف من حيث الموقع مع ما كانت عليه وقد اصبح الشعر لازمة من لوازم الرجال الذين يقودون القبيلة الى مواقع النصر ، ويحققون لها الظفر في الحرب والقيادة في المعارك والريادة في اخذ المواقع المتقدمة وقد ارتبطت قدرة التعبير بما يحقق لهؤلاء الابطال ما كان يرجى منهم ان يقدموه في مجال الظروف المتاحة ، لانهم كانوا يحاولون ان يجعلوا صلة الانتماء الاجتماعي بينهم قوية ، ووشائج الارتباط المصيري متينة ولانهم كانوا يدركون ان

معايشتهم الاحداث بدقة يؤهلهم لتحقيق المطامح المشروعة لابناء قومهم ، ويمكنهم من المشاركة في صنع الصورة التي تتبلور فيها المسؤلية الاجتماعية وفق الشكل المتكامل . ولعل منزلة الشعر في نفوس العرب وقدسيته وارتباطه بالسحر ، وما قيل بشانه من اقوال ، واحيط به من اساطير ، ومارافق الشعراء من اهتمام ، واحيطوا به من رعاية من قبل ابناء قومهم قد ترك لهذا العامل اثره في تحديد العلاقة بين البطل وقول الشعر من جهة ، وبين القدرة البطولية وما احيط به الشعر من جهة اخرى .

ان الاعتزاز بقول الشعر ، والاعتداد بالشعراء الذين يحملون على عواتقهم مهمات الاحساس القومي دفاعا وانتصارا ، اقتدارا ومجابهة يمثل الصورة الجماعية التي كانت تعطي هذا الاهتمام قدرة من التحمل ، والمظهر الواسع الذي يمثل القبيلة ، وفي هذين الاعتبارين تتجلى شخصية الشعر العربي الذي ظل يحمل تصور الشعور العام دون الخاص ، ويتفق مع الحدود الانسانية الكبيرة التي تلتقي عندها آمال الافراد الذين تجمعهم صورة القبيلة ، وتوحد بينهم المصلحة المشتركة ، ويثير اهتمامهم المصير الذي يحيط بوجودهم القبلي والقومي .

وشعر الحرب امتداد للبطولة التي يحاول من خلالها الشاعر ان ينتزع ـ وفي ايحاءات المعاني التي تتضمنها القصائد ـ من خصمه كل اسباب المقاومة ، ويسلب من شخصه كل مقومات المجابهة ، ويسرب اليه من ثنايا الابيات عناصر الضعف التي يرسخها في نفس هذا الخصم ، او يؤكدها في قبيلته ، معددا له مواقع الهزائم التي منيت بها هذه القبيلة ، والانتصارات التي حققها الشاعر او غيره من ابناء قبيلته ، وهي محاولة يدخل في تضاعيفها التاثير النفسي ، وتعمل فيها عوامل التداعي التي تتراكم في صور الهزائم ، وتتجسد في تكثيف اخبار الفرار ، واعداد القتلى وهنا تدخل الى نفس هذا الخصم صورة الهزيمة امام هذا السيل المتراكم من صور الضعف التي حددها له الشاعر ، وصورة القوة التي بدا يتصورها في حديث خصمه ، وبعد ان تبدا هذه الصورة تكبر يستغل الشاعر هذا الجو النفسي الجاهز الذي يجد فيه القدرة على الاجهاز فيجهز عليه ، ويحقق نصره وهو في كل صورة من هذه الصور يدافع عن حقيقة آمن بها ، ويذود عن قيم انسانية ترسخت في كل تعبير من تعابيره ، ويجاهد من اجل تثبيتها في كل عمل من اعماله .

ان صور الشعر التي يستخدمها الشاعر في هذه الاحوال لم تكن موافقة للصورة المألوفة ؛ ولم تكن صيغ التعابير خاضعة للبناء الشعري الذي تعود الشعراء على سلوكه في الاغراض التقليدية وانما هي صيغ متخصصة ، واختيارات مدروسة ، وموضوعات محددة تقتضيها طبيعة الظرف ، وتفرضها نوازع الحالة الراهنة وتأخذ بعدها فيها طريقة الحديث المطلوب ، لتكون الكلمة قادرة على اداء دورها ويكون الغرض موفقا في طرح المسألة الحادة ، ولتصبح الصورة الشعرية مشحونة بالقدرات القتالية المتمكنة التي تستطيع رفع الشعر الى المكانة السامية التي يباشر فيها مهمته ، ووضعه في المنزلة التي تجعلها مقبولة لدى الآخرين من الناس .

القسم الثالث

ان استمرار الحرب واشتداد ضراوتها قد تركت اثرها في تخصص شعر الحرب ذاته ، وفي توجيه الوجهة المتحققة من الاغراض التي كان يسعى اليها الشعراء فكانت مجاميع شعر الحرب موزعة بين (الموثبات) و (المنذرات) و (المؤنبات) و (المنصفات) وفي كل باب من هذه الابواب تتمائل المعاني ، وتتحدد المواصفات ، وتتفق الدلالات ، ويحرص الشعراء او الشواعر على تحشيدها وتجميعها لتأخذ طريقها الى كل نفس ولتؤدي دورها عند كل موقف لان هذه الاصناف كانت تمثل وجها من وجوه الحرب فالموثبات تعني القصائد التي كانت النساء تقولها لاستثارة النفوس وتحريض المقاتلين والدعوة الى رفض الاستكانة ، وتمزيق حجاب الخنوع ، وقد تضمنت معانيها كل وسائل الاستثارة بما كانت تعرفه المرأة الشاعرة وهي تباشر اغراضها وتعرف المواطن التي يمكن ان تستفز بها همم الرجال وعزائم المقاتلين ، الى جانب الاحساس بالسبي الذي تحاول التلميح له في بعض المعاني وقد استطاعت مجاميع الشواعر من النساء ان يقدمن مجاميع رائعة من هذا الفن

الشعري الذي يدخل عاملا موثبا من عوامل الحرب بعد أن اكتسب خصائص متميزة ، وصورا متفقة، وايحاءات شعرية نابضة امتازت به الشواعر ، وعرفن طريقة استخدامه ومثل (الوثبات) القصائد التي اطلق عليها (الوثبات) والتي تتداخل في هذا المعنى لانها تقف عند المعاني ذاتها، وتتجه الاتجاهات التي عبرت عنها ، وتلك النهج الشعري الذي نهجته . اما [المنذرات] فهي القصائد التي انذر فيها اصحابها اقوامهم من غارات ازمع الاعداء على القيام بها ، او تحذيرهم من مغبة هجوم كاسح او كارثة مهلكة او مباغتة حربية ، ويمكن اعتبار قصيدة لقيط بن معمر التي انذر فيها قومه من هجوم كسرى وما اعده لقوم هذا الشاعر من اساليب دمار وهلاك من اشهر القصائد التي قيلت في هذا الباب . وتظل [المنصفات] التي انصف فيها الشعراء خصومهم وذكروا فيها ما ابداه الخصوم من صلابة في الجلاد وقدرة على المقاومة تمثل الجانب الاخلاقي الذي تميز به العرب حتى في حروبهم وقتالهم .. لقد استطاعت هذه الابواب ان تترك اثرها في شعر الحرب كما استطاعت ان تاخذ احجامها في دائرتها التي كانت تتميز بالاشتداد والضراوة ، وان كل باب منها يحمل من الدلالات المعنوية والصور

القتالية والاحاسيس التي كانت تصاحب هذا الضرب الشعري ما يعطي هذا اللون طابعا فنيا متميزا ، ويحدد له الخصائص البيانية الواضحة وربما يدخل في هذا الباب اشعار التحريض او المحرضين الذين كان لهم الفضل في تاجيج الحماس، والباب مشاعر المقاومة ، وتحشيد الناس لمجابهة القوى الغازية او الطامعة وقد افرد لكل باب من هذه الابواب فصل في بعض كتب الاختيار بعد أن اصبحت تيارا له مساراته واتجاها عرفت المضامين التي يمكن أن تحتويها ابياته وقد وجدت بعض هذه الاغراض ابوابها في مجاميع الشعر العربي فقد افرد الاصمعي للمنصفات بابا خاصا في الاصمعيات وذكر قسما منها فيها . ثم جاءت كتب الحماسة لتاخذ مساحة كبيرة في كتب الاختيار وكان حماسة ابي تمام اول كتاب اخذ مكانته في النفوس فانتزع اعجابها ، ووقع عليه الاجماع بسبب الاختيار الموفق ، والذوق الرفيع والحس الشعري الرقيق بعد أن خصص اوسع باب من ابوابه لموضوعات الحماسة ، ولم يكتف به وانما وضع كتابا آخر في الحماسة اطلق عليه اسم الوحشيات . وسار البحتري في هذا الاتجاه ليضع كتابا في هذا الباب ولكنه يختلف من حيث عدد الابواب ومضمون كل باب من تلك الابواب . والتبويب الذي ادخله كان

اقرب الى موضوعات الحرب ، والصق بالجانب النفسي الذي يعتري احوال المقاتلين ، أو يدفعهم الى دائرة المعركة وقد افرد بعض الابواب لما قيل في حمل النفس على المكروه عند الحرب وما قيل في الفتك والاصحار للاعداء والمكاشفة لهم وترك التستر منهم وما قيل في الانفة والامتناع من الضيم والخسف وركوب الموت خشية العار والتحريض على القتل بالثار وترك قبول الدية والتشمير عند الحرب وذم الفرار والتعيير به واستطابة الموت عند الحرب والانصاف فيه ثم توالت كتب الحماسة فكان الحماسة للخالديين وحماسة ابن الشجري الذي افرد الباب الاول منه لباب الشدة والشجاعة ثم تأتي الحماسة البصرية التي جمعها صدر الدين ابن ابي الفرج البصري وهي من كتب الحماسة الكبيرة التي وقفت عند نماذج مما وصف به الانسان من شجاعة وشدة في الحرب ، وصبر في مواطنها وقد جمع في هذا الباب اكثر من مائة واربعين قطعة والى جانب هذه الحماسات المطبوعة فهناك كتب اخرى اختارت مجاميع متنوعة من هذا الفن الشعري وما تزال مخطوطة منها حماسة الاعلم الشنتمري وحماسة الشاطبي وحماسة الشميم الحلي والحماسة المغربية والتذكرة السعدية التي طبع قسم منها .

ان هذا الاهتمام الواسع ، وهذه القصائد الكثيرة التي عرض فيها الشعراء لموضوعات الحرب والشجاعة والبسالة وما يتعلق بمعانيها ويتأثر باغراضها تمثل التوجه الشعري الذي اخذت قنواته تصب في المجرى الكبير الذي كان يحرك الاحداث ويأخذ بناصية الدفاع عن القيم الاصيلة ، ويسير باتجاه الذود عن الخصال الحميدة التي ارتفعت في النفوس واندفع الشعراء يحملون لواء الدفاع عنها ، ويوجهون الجمهور الى التمثل بها شعرا والحرص على تربية الابناء عليها من خلال النماذج الشعرية التي كانت تشحن بالدلالات الصادقة وقد اكتملت صورها شعرا واتقت وزنا وقافية .

واذا كانت المراة العربية قد دخلت الحرب شاعرة ومحرضة فان دورها لم يكن مقتصرا على هذه الابواب ، وانما كانت تخوض ابواب الشعر الاخرى بنفس التصور ، وتعبر عن الاحاسيس التي تعتمل في قلوب الناس وهم يعالجون اغراضها بذات الاحساس . وقد بقيت اسماء الشواعر العربيات تملأ القلوب بالحمية ، وتزيد في النفوس مكامن الحماسة ، وتوقد في كل موقعة الهب المشاعر ، وتبث ارق الاحاسيس ، ولان كل صوت من اصواتها كان يثير هزة الكبرياء ، وكل موقف

من مواقفهن يمثل لوحة تعجز عن تصويرها روائع اللغة وخوالد البيان ، وكل عمل من اعمالهن يتجاوز خوارق القدرات ، ويمتلي حواجز الوقع المحدد . وقد استطاعت المراة ان تفرض نفسها عبر القرون لتكون نموذجا متقدما في كثير من جوانب الحياة بعد ان اخذت موقعها في التاليف ومكانتها في ابواب الدراسات فخصص لكل باب من ابوابها فصل فقد الف في (اخبار النساء) حوالي خمسة عشر كتابا تضمنت احوالها وطبائعها وطرق معيشتها واوصافها وما تعجب به او تعرض عنه وما قيل فيها او روي عنها ، والف في اخبار الشواعر مجموعة اخرى ، ويمثل كتاب اشعار النساء للمرزباني قمة هذه الكتب وقد وصل الينا جزء منه اما الاجزاء الاخرى فما تزال في عداد المفقود من التراث العربي ومثله كتاب بلاغات النساء لاحمد بن ابي طاهر الذي ذكر طرائف كلامهن واخبار ذوات الراي منهن واشعارهن في الجاهلية والاسلام ، وكتاب النساء الشواعر لابن الطراح وهو كتاب جليل في عدة مجلدات ومن المحدثين جمع لويس شيخو مراثي ستين شاعرة من شواعر العرب ، وجمع بشير يموت مجموعة اخرى من اشعار شواعر العرب . وتظل قدرة المراة في العصور التي تلت العصر الجاهلي قدرة

متميزة تتحقق صورها في المجالات الواسعة التي تحركت فيها ، وميادين العلم التي شاركت في تقديمها ، وحقول البحث التي ظلت فيها قادرة على اغناء المعرفة ورفد جوانبها المختلفة بما قدمته من عطاء . وبذلك استطاعت ان تحقق اعمالا خالدة مكنتها من تسجيل المفاخر الحميدة والخصال الكريمة . واذا قدر لاعمالها الكبيرة ان تجمع ولمآثرها الجليلة والانسانية ان توحد ولمعارفها الواسعة ان تلم ولمشاركاتها المتعددة ان تحصى لوقفنا على سيرة رائعة ومسيرة خالدة ، تنسج في تخليدها اروع الصور ، وتكتب في مجال بطولاتها اخلد الاعمال ولبطولاتها الفريدة وتضحياتها النادرة امجد الصفحات واعزها ، لان تاريخ هذه الامة ـ وبكل جوانبه ـ حفل بمجد المراة وبطولتها وزخر باعمالها وتضحيتها ، وغنى بمشاعرها واحاسيسها التي ظلت تغني به تيار الحياة ، وتروي بفيضها زهو المجد الانساني الذي حملته في نفسها .

ومن الطبيعي ان يكون السلاح عنصرا اساسيا من عناصر الحرب لان في قوته وقوة حامليه تتحدد النتائج ، وفي حسن استخدامه تتضح ملامح القدرة القتالية للمقاتلين ، وفي التدريب عليه والتنشئة على معرفة صنوفه والاستعداد

لمجابهة الخصوم عن طريق الاحتفاظ به والحرص عليه تستقر طبيعة الحياة وتشتد اواصر الترابط وتوحد جهود الامة ، ولابد ان يكون لتأثيره وجه متميز من وجوه الشعر الذي يعبر عن مقدرته ومضائه وان الاهتمام بالسلاح ظل يعني الاهتمام بالحياة وبالوسائل التي تشارك في جعلها حياة آمنة ومستقرة ، وفي تحقيق مطامحها المشروعة ، واهدافها التي لا يمكن ان تتحقق في معزل عن استخدامها في الدفاع عن الحق ، والذود عن الارض ، والوقوف بوجه التحديات التي تحاول فرضها قوى البغي والعدوان ، وقد آمن الانسان منذ مراحله الاولى ان القوة التي يمتلكها تدفع عنه الاذى ، وتحول دون تعرض الآخرين لمسيرته ، وتمنعهم من التعرض له او التجاوز عليه او الاستحواذ على ما يمتلكه من وسائل الحياة وهذا ما حمله على ان يظل محافظا على حماية السلاح لان في ذلك حماية للنفس ، وتحقيقا لاسباب الحياة وانتزاعا لكل حق وقع في قبضة الخصم وقد ظلت الامم تتغنى بسلاحها وتنشد في تمجيده من غرر أدبها ما رفعه الى منزلة التقديس والتعظيم . والسلاح عند العرب ـ شانهم شان بقية الامم ـ بقي موضع اعتزاز ، ومجال تكريم ، ومثار احترام وتقديس لانهم ادركوا قيمته ،

وعرفوا حقه ، ووقفوا على اهميته التي كانت توازي اهمية الحياة ، وتستوي من حيث المكانة مع ما يقدمه من جلائل الاسباب ، وعظائم المواقف ، وخوالد الوقائع . وقد اقترن الحديث عنه بالحديث عن الفرسان لطول الملازمة وتواصل اسباب الحياة . ولان كل واحد منهما يكمل وظيفة الثاني ويحقق له القدرة ، ويعطيه المكانة المناسبة، وقد امتازت احاديث الفرسان عنه باصطباغ الفاظها بلون التعاطف وتمازج عبارتها بمشاعر الاحساس بالمشاركة ، وكثيرا ما يضفي الاعجاب زهاءه المشرق ، وتكبر في عيون الفرسان احجام الادوار التي يؤديها ، وتزهو في قدرة سواعدهم قوته الخارقة وهو يطوي قامات الابطال ، ويسقط هامات المقاتلين ، ويخترق الدروع اللوامع ، ويشق التروس المضاعفة ، ويهوي بشوامخ القلاع المنتصبة . ان الحديث عن هذه الاذرع الممتدة والسواعد الطويلة التي تمكن المقاتل من خصمه وتجعله يتلوى في دائرة قبضته لا يمكن ان تكون بعيدة عن تعابيره التي تصاحب كل عمل قتالي او تواكب كل حركة من حركاته التي تحوله الى قطعة هامدة او بقية انسان تتلاقفه الشعاب وتنتهبه الوديان التي يجد فيها ملاذا .

ان الحديث الذي تحدث به الشعراء عن هذه الاسلحة لم يكن حديثا عابرا ، وانما هو حديث المناجاة والاعجاب ، حديث الاهتمام بكل جزء من اجزائها ، وبكل ميزة من ميزاتها وكثيرا ما ياخذ الوصف مضاءها وقوتها وعنصرها وجوهرها ، يتحدث الشاعر عن حبه لها واعجابه بما تؤديه له ، وزهوه وهو يحملها واندفاعه وهو يؤمن بقدرة هذا السلاح بعد أن اصبح مهيئا لمنازلة الخصوم وجها لوجه وبعد ان تاكدت الحقيقة في نفسه وهو يقول :

تاخرتُ استبقي الحياة فلم اجد
لنفسي حياةً مثلَ ان اتقدّما

فلسنا على الاعقاب تدمى كلومُنا
ولكن على اقدامنا تقطرُ الدما

هذا الحديث كان يخرج من قلبه خالصا ، ويعبّر عن احساسه صوتا انسانيا متميزا ، تتناغى في طواياه احداث الحرب ، وتتماوج في ثناياه وقائع الايام ليصبح اغنية عذبة يسجل من خلالها الرجال ملاحم البطولة ، ويكتبون صفحات المجد ، وينشرون الوان المفاخر ، بعد ان تزدهر فوق هامات الرجال اكاليل النصر ، وتعلو في كل

ناد لهم اصوات الانتصار ، وتعيش في كل موقعة من مواقعهم احداث المواقف الرائدة ، وكانهم في كل موقف يرددون قول جعفر بن علبة الحارثي :

لهم صدرُ سيفي يوم بطحاءِ سَحْبلٍ
ولي منه ما ضُمّتْ عليه الانامل

او يتمثلون بقوله :

نقاسِمُهم اسيافَنا شرّ قسمةٍ
فقينا غواشيها وفيهم صُدُورُها

وبقيت ساحات القتال وميادين الحرب تشهد لهم باقدامهم الجريء ، واقتحامهم البطولي وهم يعززون القول بالفعل ، ويوصلون الصورة بالخطوة ، ويشدون اواصر القتال بكل ما يملكون ليجعلوها متصلة الاطراف ، موحدة الفكرة ، وليدخلوا من خلالها الى كل مكرمة تسجل او مأثرة تخلد ، او عمل انساني تظل ملامحه واضحة القسمات ، وتعيش آثاره متميزة النوازع .

إنا لنُرخصُ يومَ الرّوع انفُسَنا
ولو نُسامُ بها في الامن اُغلينا

بيضٌ مفارقُنا تغلي مراجلُنا
ناسُو بامواليِنا آثارَ ايدينا

إني لَمِنْ معشرٍ افنى اوائلهم
قولُ الكُماةِ الا اين المحامُونا

لو كان في الالف منا واحدٌ فدعوا
من فارسُ خالُهمُ إيّاه يَعْنُونا

إذا الكُماةُ تَنَحّوا انْ يَنالَهُمُ
حَدُّ الظُباتِ وصَلْناها بايدينا

واللاح عند العربي رمز تنطوي تحته كثير من المعاني ، فرفعه فوق الراس من اسمى آيات الاحترام ، وتحطيمه يعني الضعة والذلة ، وتسليمه يعني الخضوع والمسكنة ، وقد ظلت هذه المعاني حية في سلوكه القتالي ، يعتز بها ويتمسك بكل قيمة من قيمها ، ويدافع عن كل رمز من رموزها ، لان اعتزازه بالرموز ، ودفاعه عن الدلالات يوثق في نفسه قدرة الاندفاع ، ويحقق في ذاته سلامة الاقتدار ويولد في كيانه استمرارية الاحتفاظ بالمواطن الانسانية التي ظل امينا عليها ، حريصا على سلامتها ، وهذا ما كان يدفعه الى ان يحرص على اقتناء رمح مدبب وسيف صقيل وفرس جرداء ، ودرع سابغة ، لان هذه العناصر مجتمعة تمنحه القوة النفسية التي يتمكن بها من تجاوز مصاعب الحياة ، ومقاومة

اسباب الصراع الذي كان يحتدم من أجل ترسيخ وجوده ، وايقاف كل المطامع التي كانت تحاول اخضاعه لجبروتها ، او اسقاطه في دائرة استغلالها ، او اجباره على الرضوخ لما تفرضه عليه من شروط ، ولان هذه الوسائل تمثل الطريق الذي يمكنه من الوصول الى السعادة والسيادة والعزة والمجد ، وقد وجد الشعراء في هذه العناصر الوسيلة الممكنة لتحقيق الاهداف وهذا ما دعا عامر بن الطفيل الى ان يؤكدها في قوله :

يوم لا مالَ للمحارب في الحر
بِ سوى نصلِ اسمرٍ عسّالِ

ولجامٍ في راس اجردٍ كالجد
عِ طوالٍ وابيض قصّالِ

ودلاصٍ كالنهي ذات فضولٍ
ذاك في حلبة الحوادث مالي

ان هذه العدة المتكاملة وهذه الوسائل المهيئة تعطي الانسان قدرة الدفاع ، وتدخل في نفسه قناعة الاقتدار على المجابهة والتصدي لاسباب التهديد ، والتمكن من الاندفاع لرد اشكال الاعتداء ، وايقاف محاولات التطويق والاحتواء التي كانت تمارس لاستلاب الحس القومي والحد

من المشاعر القبلية التي كانت تتاجج في حالات الحرب وتستثار في مواقف التحدي وكان الشاعر يعلم تاثير السلاح ويعرف المهام التي يؤديها في مجتمعه الذي ترك لانواعه فرصة توسيع مجال قدراتهم ، بما يستخدمونه منها باعتباره اغلى ما يملكون واعز ما يدافعون عنه ، والصق حاجة بحياتهم وخاصة عندما تحيق النوائب ، وتنزل النوازل وتتلاحق عاديات الدهر وعبد قيس بن خفاف البرجمي يهيء للنائبات كل انواع السلاح التي يراها ، ويعد لها كل متطلبات التهيئة التي تبعد عنه خطوبها فيقول :

فاصبحتُ اعددت للنائبا
تِ عرضاً بريئاً وعضباً صقيلا
ووقع لسانٍ كحد السنا
نِ ورمحاً طويل القناةِ عسولا
وسابغةٍ من جياد الدرو
عِ تسمع للسيف فيها صليلا
كماءِ الغدير زبتّه الدبو
ر يجرُّ المدجّجُ منها الفضولا

ان تقديس العرب للسلاح كان ينبثق من

الحاجة الحقيقية التي كان يؤمن بها ، ومن الاحساس العميق بما كانت تؤديه له كل عناصره ومن هنا كان تعظيمه لها واعجابه بها وتعاطفه معها وكان يعد نفسه غنيا لو استطاع الحصول عليه ووضعه في بيته وكثيرا ما كانت نظرات الاعجاب هذه تتحول الى حب متبادل لانها وسائلهم في تحقيق الحياة وصيانة الشرف والدفاع عن العزة وتطمين الرغبات ، ولعزة مواقعها في نفوسهم ، وقيمتها في حياتهم كانوا يرهنونها اذا اصابهم امر عظيم او حلت بهم كارثة ، او تعرضوا لمالة قاهرة ، وان قيمة السلاح لا تكمن في شكله او صنفه ولكنها تمثل شرف الرجل وهو قائم بما رهنها له مهما كلفه الامر ، وفي قصة حاجب بن زرارة ورهنه لقوسه تتمثل هذه المعاني وتتجسد الخصال العزيزة التي ظل حريصا على الوفاء لها .

ان اضطرار العرب الى اتخاذ هذه المواقف كان يتحدد في اطار الدفاع عن النفس ورد الهجوم والتصدي لمن يحاول الاغارة وان ظروف الحياة القاسية كانت تفرض عليه ان يجيد الحرب ، ويتقن اساليب القتال وان تكون الفروسية هي المثل الاعلى ، والهدف الذي يسعى اليه كل مدرك لواقعه ، متحسس بظروف حياته ، وأن تكون الشجاعة بكل ضروبها وسيلته الناجعة للوصول

الى هذا الهدف ، ولا غرابة بعد هذا ان يكون التدريب على القتال ، ومعرفة طرق الحرب وما يتعلق في ذلك من ممارسة ركوب الخيل ، وتحمل المشاق منذ الصغر ، ومقاومة التحدي ، وتمجيد معاني الشجاعة والجراة والتضحية والوفاء ، الاساس الاول في التربية العربية التي يحرص عليها العربي ، ويسعى من اجل ترسيخها في نفوس ابنائه ، ليتمكن من ابقاء استمرارية هذا الجانب الموروث ، والحفاظ على هذا التكوين الحربي الذي تظل وشائجه متصلة ، وقنواته دائمة العطاء ولتبقى القدرة القتالية العالية هي المعيار الذي يحدد الموقع ، ويؤكد الوجود ، ويشد الابناء بالمجد الذي يحرصون عليه . وهذا ما كان يدفعه ايضا الى أن يعايش سلاحه بكل حياته ، ويتمع لكل همسة تختلج فيه ، ويتلمس كل حركة يحاول التعبير بها ، حتى كان يناديه باسمائه المشوقة والقابه المحببة ، ويدعوه عندما يجد نفسه بحاجة اليه ، ويناجيه حينما يجد الضرورة واجبة ، وفي الطرف الثاني من الصورة كان السلاح أمينا على واجباته ، مخلصا في اداء هذا الواجب، وملتزما بما كان يوكل اليه من مهمات ، فيستجيب لنداء الفارس الشجاع ، ويلبي دعوة البطل المغوار وقد توثبت كل عروقه ، وتحركت كل اطرافه

مكتبتنا العربية

واجزائه وفي مجال التوافق النفسي والانسجام الروحي الذي يشد بينهما لتعالى قدرة الاعتزاز ، وتلوح امارات الفخر ، وتشرق قسمات النصر ، وتزداد الصلة عندما يعرف الفارس (بصاحب الصمصامة) او (ملاعب الاسنة) . ويظل الفارس امينا على شرف سلاحه وهو يتحرى نسبه وسيرته ومضاءه ، وشدته في احتدام المعارك ، ويتعقب ايامه باحثا عن انتصاراته وكان من عادة العرب انهم اذا اصابوا سيفا قاطعا تناقلوا خبره واطروه وظلوا يذكرون وقائعه وقد تجلى اهتمام العرب بالسلاح في تخصص الشعراء بوصفه ومتابعتهم لمراحله التي يمر بها فكان اوس بن حجر من اوصف الشعراء للسلاح ولا سيما القوس وكذلك كان الشنفرى الذي كان من اكثرهم وصفا للقوس ، ومثلهما الشماخ وفي كل لوحة من الواح هؤلاء الشعراء تتضح البراعة ، وتبرز قدرة المعرفة الدقيقة ، ورغبة الوقوف على ما يؤديه ، ويتجلى هذا الاهتمام في كتب السلاح التي حفلت بها كتب اللغة والادب والتاريخ فقد ضم كتاب ادب الكتاب لابن قتيبة والعقد الفريد وفقه اللغة للثعالبي والمخصص لابن سيده ونهاية الارب للنويري وحلية الفرسان لابن هذيل الاندلسي فصولا لكتب السلاح عرضوا فيها لكل اصنافه

وهي مادة كبيرة يمكن دراستها وتحليلها والانتهاء منها الى نتائج موضوعية مهمة تكشف عن هذه الظاهرة عند العرب والاهمية الكبيرة التي استغرقتها في ادبهم والمعاني الكثيرة التي تناولوا بها هذا الجانب واثر ذلك في شعر الحرب الذي اتسعت ابوابه ، وامتدت معانيه .

ان هذا الحديث يدفعنا الى ان نقف عند صناع هذا السلاح الذين ابدعوا فيه وبرعوا في صنعته (فابن مجدع) و (رُدينة) و (سمهر) و (قعضب) كلهم ممن نسبت اليهم السيوف والرماح ، ولم تكن (رديئة) المراة العربية بعيدة عن هذه الصناعة التي اقترن اسمها بكل رمح يصيب الخصوم او يُظهر من المضاء ما يدعو صاحبه الى ان يتغنى باسمه فيقول عميرة بن جُعل :

أصمّ رديْنيّا كانّ كعوبَه
نوى القَسْب عرّاضاً مزجاً مُنصّلا

ويقول الحصين بن الحمام :

يهزون سمراً من رماحِ رُدينةٍ
إذا حُرّكت بَضّتْ عواملُها دما

ولم يكن السيف والرمح وحده قد استحوذ

على معاني الشعر وانما كان يتجاوزها الى القسي التي نسبت الى (رضوى) وهي امراة عربية اخرى عرفت بصنع القسي وكانت القوس رمز الرجولة ودليل الشرف ، لانها الرفيق المخلص والوسيلة الوفية وقد عرف العرب بمهارة استخدامها ، وقدرتهم على اصابة الاهداف فقد ذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد ان العربي كان يستطيع أن يرمي بالنبال فيصيب احدى عيني غزال دون العين الاخرى ، وكان احدهم يعلق ظبيا بشجرة ويرميه بالنبال فيصيب اي عضو شاء من اعضائه حتى يرمي فقراته فقرة فقرة فلا يخطيء واحدة منها ، وكما اهتم العرب بالقوس فقد اهتموا بصوتها وبلونها ، فهي في ضوء ما وصل الينا من الشعر صفراء دائما ولكن الشنفرى يصورها لنا حمراء تارة اخرى اما اصواتها التي كانت تجدثها عند الرمي فقد كانت تفتنهم فتنة شديدة تبدو في تلك الصور الشعرية التي رسموها ، وتتجسم في الاصوات الحزينة المعولة التي شبهوها بها وهذا ما حمل الشنفرى على ان يتحدث عن هذه الاصوات وهو يعبر عن احساسه الداخلي وغربته المؤلمة بعد ان انقطعت به السبل ، وتباعدت بمسيرته المهالك وتهادته التنائف .

ويقف عند السلاح الذي أصبح الرفيق الحقيقي له في رحلته الطويلة ، وعلاقاته الانسانية .

وإني كفاني فقدَ من ليس جازيا
بحسنى ولا في قربه مُتعلّل
ثلاثةُ اصحاب فؤاد مُشيّعٌ
وابيض إصليتُ وصفراء عيطل
هتوفٌ من الملس المتون يزينها
رصائع قد نيطت إليها ومحمل
اذا زلّ عنها السهمُ حنّت كانها
مُرزاة ثكلى تُرنّ وتعول

وكما اهتم العرب باصوات القسي والوانها ، اهتموا بصنعها وكيف كانت تعمل ، والشجر الذي تؤخذ منه ، وكيف يتعهدون عوده وهو صغير فيختلفون إليه حتى يصبح صالحا لاتخاذ القسي ، ثم يبدؤن بسقيها ماء لحائها ، وتتم هذه العملية بتقطيع هذا العود وهو رطب ثم يترك في الظل حتى يجف ليكون اكثر صلابة . وقد صورلنا اوس بن حجر ذلك بتفاصيل دقيقة وملاحظات شعرية توحي بالاهتمام الكبير الذي كان يوليه لهذا السلاح وكذلك صنع الشمّاخ الذي تابع أوس بن حجر

فوصف قومه منذ ان كانت قناة من نبع الى انْ تَمت تسويتها واعدت للرمي وقد تجاوزت ابيات كل واحد من هذين الشاعرين العشرين بيتا وفي لوحتيهما يبرز الفن الشعري الرائع ، وتتجسد الشاعرية الفذّة التي دفعت هذين الشاعرين الى ان يخصصا هذا الشعر للحديث عن السلاح الذي كان الوسيلة الأساسية في بناء الحياة ، والمجال الحقيقي الذي يمكن ان تتحرك في اطاره القصيدة الحربية لان هذا الجانب يمثل وجها واحدا من وجوه الشعر الحربي وهو الوجه الذي اخذ الشعراء مهمتهم في ابرازه والاعتناء به والوقوف على مظاهره أما مضاء هذا السلاح وصور القدرة القتالية العالية التي يؤديها المقاتل والميدان الفروسي الذي تتشامخ في رحابه وطاته فهو مجال آخر يمكن الحديث عنه في موضع آخر .

القسم الرابع

لقد بقيت الحرب سببا مباشرا من اسباب الاستثارة ، وحافزا قويا من حوافز الدفع الشعري، وعاملا حاسما من عوامل التاثير في توجيه العواطف وانضاج الاحاسيس وقد التفت الى هذه الحقيقة ابن سلام فقال « وبالطائف شعر وليس بالكثير ، وانما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الاحياء ، نحو حرب الاوس والخزرج ، او قوم يغيرون ويغار عليهم . والذي قلل شعر قريش انه لم يكن بينهم نائرة (العداوة تقع بين القوم فتثير الشرور) ولم يحاربوا وذلك الذي قلل شعر عمان واهل الطائف »(١) وابن سلام في هذه المقولة يتحسس الاثار الواضحة التي يعكسها الشعر ، ويحققها الشعراء وهم يتبارون في ميادينها، ويعبرون عن احساس الناس الذين تتصاعد في نفوسهم الصور الانسانية التي تحاول ان تقدم الاعمال الجليلة والمواقف الحاسمة ، وان كل جانب من هذه الجوانب يعالج صورة من صور الحرب ، ويشارك في ابراز قدرة من قدرات المقاتلين ، ويحقق صوتا اعلاميا

(١) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ١/٢٥٩ .

متميزا من الاصوات الجريئة التي كانت ترتفع لتجد الموقع المناسب ، والشعر في كل هذه الاطر يمثل الصورة الواسعة التي تختفي في زواياها اصداء المعارك، وملحمة اللقاء ، وقدرات الشعراء الذين يحرصون على تحديد الوان المعركة ، وحركة الاحداث ، وقدرات الرجال ، والمآثر التي يمكن ان تضيف الى القبيلة مجدا جديدا، او مكرمة حميدة تزيد في اندفاع الابناء وتترك للاجيال القادمة موروثا من الخصال يترك لهم مجال التباهي في نوادي القوم . وابن سلام في هذا التعليل يقف على الاسباب الحقيقية التي كانت تدفع الناس الى الحرب ، وتؤجج نوازع القتال وتثير كوامن الصراع ، وهو كذلك يعطي المادة الشعرية حقها في التعبير من خلال الموضوع الكبير الذي يثيرها ، والدافع الاكيد الذي يلهب وقودها الجزل ، ويغذي شواظها الملتهب ، وابن سلام في هذا التحديد يفسر الظاهرة الادبية تفسيرا واقعيا ، بعد ان استطاع تشخيص العامل المؤثر في بروزها ، وتحديد العنصر الفاعل في توسيع مداها ، لانها كانت تمد الشعراء بروافد غنية ، وتهيء لهم مجالات رحبة ، وتترك لهم الميادين العريضة التي تنطلق فيها المواهب وتزدهر براعم القدرات ، وتتبارى ابداعات الشعراء بما يجدونه من موضوعات تفسح

لهم الطريق واسعة ، وتمهد دروب الوسائل التي تمهد لها الحرب .

واذا كانت موضوعات السلاح قد استأثرت بجانب كبير من جوانب شعر الحرب فان اعمال الرجال وما ابدوه من تضحيات وسجلوه من انتصارات وقاموا به من اعمال كان لوحة اخرى من لوحات هذا الشعر الذي بقيت صفحاته الخالدة تتغنى بها وتقدمها للاجيال باعتبارها مظهرا اخر من مظاهرها ، ووجها متميزا من وجوهها يعبر عنه الانسان الذي يدير دفة الحرب ، ويحرك اطرافها المتباعدة ، ويثير في كل جزء من اجزائها اللون الحسي وينثر في حومات نزالها خفقاته التي تخفف من احتدام توقدها ، لان المظاهر الانسانية التي تتجلى في اخلاق المقاتلين ، وطبيعة سلوكهم الانساني ، وانصافهم خصومهم ، ورعايتهم لمن يقع في ايديهم من الاسرى والجرحى كانت تأخذ الزاوية الحية في الحرب ، وكانت تخفف من اوارها المناجج وتمنح المقاتلين ظلالا من ظلال الحس الاخلاقي الذي تميز به ابناء هذه الامة وهم في احلك ساعات الصراع ، واشد مواقف الحسم ، ومثل ما كانت نوازع هذا الجانب تستثير حسهم الانساني فان مظاهر البطولة والثبات وقت الشدة ، وقدرة المقاومة ، والصبر على المكاره ومطاردة الاعداء كانت تمتد الى دائرة

مكتبتنا العربية

اخرى من دوائر الاحساس لتعطيه من فيض مشاعرها ما يوازن المعادلة و يحقق للحرب صورتها الحماسية، وعندها تتكامل لوحة هذا الغرض عندما تتحقق الغايات في كل طرف من اطرافها بعد ان يؤدي المهمة التي اضطلع بها . فالشاعر الذي اختلفت في نفسه الاحاسيس وتحركت في داخله العواطف وأخذت منه مواقف الحرب ماخذها استطاع ان يصوغ الموقف بما يناسب هذا الجو النفسي ويعطيه من الالوان والظلال مايترك لقومه المنزلة التي لا تسقطهم في دائرة الانكسار او الخذلان ، ولا تجعلهم مجالا لاحتمال الهوان او عرضة لاقوال الاخرين الذين يوغلون في ايدائهم . والشاعر في كل هذه الاحوال يندفع من مواقع الحرص على ابناء قومه الذين وضعوا فيه كل ثقتهم ، وتركوا له تقدير الموقف ، وسلموا اليه مقاليد امورهم واعلامهم ، وهو يجد امامه فنونا شعرية وابوابا فنية ، ورحابا واسعة من الموضوعات التي تعطيه مجال التحرك ، وتترك له فرصة الاختيار لياخذ منها ما يلائم ظروفه ، ويوازي الواقع النفسي الذي اعترى ابناء قومه في كل الاحوال .

ان هذه الحقائق التي استأثر بها الشاعر وهو يؤدي مهمته ، والشعر وهو يوظف لهذا الفن العريض تحدد الموقف الواضح الذي تسمه وسط

احداث متراكمة وظروف معقدة وايام متواليـــه وحروب مستمرة حتى اصبح بامكانـه ان يكون السبب المباشر في اشعال نار الحرب او انهاء جذوتها وايقاف لهيبها واستلال الضغائن التي تتمكن من القلوب وتاخذ بكل النوازع التي تدعو الى استمرارها .

وبامكانه ايضا ان يكون الصوت الذي يرسم صورة الفواجع الدامية التي تترتب عليها وينذر الداعين الى تأجيج اسبابها ويكون الصرخة القوية التي تحفز القوم الى التهيؤ ، والنشيد الحربي الذي يشد الابناء الى الدفاع عن الارض والذود عن الحمى والحرص على القيم النبيلة التي تصان جرمتها . وبامكان هذا الشاعر ان يتحدث عن الحرب في كل غرض لان اواصر الشد بين كل الاغراض تتصل بهذا الفن الشعري لانها تصب فيه وتنبثق منه ، وتنسجم مع كل المعاني التي يريدها الشاعر ، باعتبارها عوامل اساسية في تكوين الاطار العام لها ، وعناصر فاعلة في تحقيق الهدف المطلوب منها ، وجزئيات متحركة في تشكيل الخطوط العامة التي تنتهي اليها ، وان كل صورة من صور الحياة تتحقق في صورتها التي يمكن ان يوفرها الانتصار وان كل مجد بطولي يضفي على الابناء هيبة الاحترام ، ووقار الاعتزاز يتحدد في مجال التضحية

الفذة التي يشيد بها الشاعر او تتم في عمل يقوم به احد ابنائها ويتحول على لسان الشاعر ابيات فخر خالدة ، يتناقلها الابناء في كل ميدان ، وينشدونها عند كل محفل . وفي الوان فنونها المتقاربة تتصاعد هواجس الانسان وهو يقف على عتبات المراحل الحاسمة ، ويتصور النتائج المتوقعة ويقدر المصير المنتظر ، وفي عزمات الرجال الميامين الذين يملكون القدرة على تحديد الموقف وفي شدة قبضاتهم التي تسدد الى الرؤوس والصدور ، وفي سرعة انقضاضهم وهم يتحكمون في ادارة محور المعارك ، وفي سعة خطواتهم وهي تصل الرماح الى نحور الاعداء ، تكتب الملاحم الخالدة ، وتعلم المواقف الرائعة ، ويحدد الرجال الابطال الذين تظل عيون القوم مشدودة الى اعمالهم التي توجه المعركة ، وافكارهم التي تعطيها الوجه القتالي ، وحكمتهم التي تقرر النتائج الباهرة . وان هذه الاشكال الجديدة التي افرزتها احداث الحرب قد وسعت دائرة الشعر العربي الذي اصبح يتحرك فيها ويغترف من مناهلها كما انها فرضت عليه مهمات جديدة وتبعات قومية وقبلية اصبح ملزما بالدفاع عنها ، وخاضعا للاستجابة اليها لان التزامه بها وانصرافه الى معالجة شؤونها كان المعيار الحقيقي لموقفه الملتزم ، والمقياس الذي يترك

للاخرين تقويمه من خلاله . وفي ظل هذه الحقائق اصبحت الصورة في ذهنه مترابطة ومتداخلة تتماسك فيها مهمته القبلية وموقفه الشعري ، وتتحدد في دائرتها قدرته الشعرية ومواكبته التي تمكنه من انتزاع المواقف الحادة ، والالتزامات الحاسمة وهو في كل هذه الصورة العنصر المقتدر في توجيه الاعمال وما يترتب عليها في كل باب من أبواب الحياة الاخرى التي تجد طريقها اليه .

والشعراء كانوا يدركون ان الفارس وهو يمارس الوان الشجاعة ، ويقدم نماذج الاقتحام البطولي هو جزء لا يتجزا من المجتمع الذي منحه هذه الصفات ، ووهبه هذه المسؤوليات ، وان الابناء الذين يتطلعون الى هذه الصورة والنساء اللواتي يراقبن هذه الصفة الحميدة يعلمون بانهم يخوضون ميدان تدريب ، ويعيشون مجال تجربة، وانهم سيتحملون هذه المهمة في يوم من الايام وسيؤدون دورهم على الوجه الاكمل بما يحقق لهم مثل هذا الفخر المسجل ، ومثل هذا التاريخ الخالد وان هذا التفكير الذي كان يشغل الجميع حدد المسؤولية لكل واحد وان التبعات المترتبة يتحملها الكل دون استثناء ، فالنصر الذي يحققه اي انسان من ابنائها هو النصر الذي يتوج حياتها ، ويوفع مكانتها ، ويعلي قدرها ، وان الارث القتالي او

الظفر البطولي الذي يكتب في اية معركة هو الارث الذي تبقى عناصره فاعلة في كل مأثرة تذكر لهذه القبيلة ومن هنا كانت التربية الحربية والحرص على بقاء السيادة جانبا اخر من الجوانب الشعرية التي اهتم به الشعراء وهم يعالجون هذه الموضوعات لان الحفاظ عليه والحرص على استمراره وبقائه كان يترك لهم فرصة التطلع الى المكانة الرفيعة فلا يهلك منهم سيد الا اخذ الامر عنه غلام سيد ، وقد عد ذلك من ظواهر الاعتزاز والفخر ولان الاحساس الذي يسيطر على طبيعة التربية يصبح في مجال التاثر المستمر بالصورة التي يطمح الجميع اليها بعد ان اصبحت اللوازم مهيأة ، والعناصر التي تحققها قائمة وهذا ما دفع الشعراء الى ترسيخ هذا المعنى ..

وليس يهلك منا سيد ابدا
الا اقتلينا غلاما سيدا فينا

او كما قال لقيط بن زرارة :

واني من القوم الذين هم هم
اذا مات منهم سيد قام صاحبه

او قول السموأل :

اذا سيد منا خلا قام سيد
قؤول لما قال الكرام فعول

او قول حاتم الطائي :

اذا مات منا سيد قام بعده
نظير له يغني غناه ويخلف

او قول عروة بن الورد :

اذا مات منهم سيد قام بعده
على مجده عمر المروءة سيد

فالسيادة في استكمال الصورة التربوية للنشء ، والحرص على بقاء روح التطلع عندهم وتوجيه القدرات الحيوية الوجهة التي تحتاج اليها القبيلة . كانت تمثل الطرف الاول من التوجيه الاجتماعي والفكري للابناء كما ان الحرص على استمرار وجود هذا الاحساس في كيان القبيلة والتاكيد على بقائه حيا في كل مفصل من مفاصلها، يشكل النظرة الشاملة للاطار الذي كانت تدور فيه كل اعمال القبيلة ، ويحدد لنا مجال التفكير الذي ترسخت قيمه في هذا المجتمع وان هذا التفكير كان يتشابك في الملامح المتداخلة لصورة البطل الذي كانت تتحدد في خصائصه كل الصفات التي تفتش

عنها القبيلة ، لان اختياره والوقوف على صفاته ، والتاكد من توفر الخصائص التي تؤهله يعني استمرار المجد والقدرة ، ويعني بقاء القبيلة مؤمنة بوجود النموذج والرائد الذي ظلت تفتش عنه وتسعى الى الاهتداء اليه من خلال القيم الاجتماعية والمثل التكوينية التي تعطيه هذه الخصيصة ، وان الاستعداد الذي كانت تهيء له القبيلة في كل اشكال التربية والاعداد والاستكمال كان يعطي القبيلة حرية الاختيار اولا والتفضيل في حالة الاستواء ثانيا وتهيئة البديل في حالة الفقد ثالثا ، وان هذا الحرص الذي يترك مجالات الاختيار مفتوحة كان يتيح فرصة التنافس لتقديم القدرة الاحسن ، وان ترسيخه في كل النفوس ومن خلال التجارب والممارسات يبعث في نفوس الابناء الثقة ويعمق الايمان بسلامة الحفاظ على سلالة الفرسان الذين يظلون يحملون الوية النصر ، ويرفعون غايات الظفر ، ويحققون المطامح المشروعة .

والشعر الذي اعطى كل جوانب الحرب حقها استطاع كذلك ان يواكب دقائقها باممان ، ويراقب وقائعها بتامل لانه كان يحرص على ان يعطيها حجمها الذي تستحقه في الموازنة وان كل الصور الشعرية التي كا نيقدمها كانت تستمد اشكالها من

البيئة الحية والظرف الطبيعي الذي يعرفه كل المحيطين بها ، ويتصوره كل الذين يشقون دروبها، وعند محاولة المقارنة بين حقيقة الحرب والصور التي شبهت بها في كل مرحلة تتوضح قدرة الشعراء على هذه الاستعارات ، وحكمتهم في صياغتها ، ومعرفتهم بما يمكن ان تؤديه كل منهما في مجال الواجهة وقد دفعهم هذا الى ان يحسنوا الاختيار فالحرب عندهم طاحنة تهلك الناس وتبيد البشر وتفتت الجمع وتسحقهم فتجعلهم طحينا متبددا لا يجمع شمله ، ولا توحد اجزاؤه .

وفي ابيات عمرو بن كلثوم اشارة صريحة الى ذلك حيث يقول :

متى ننقل الى قوم رحانا
يكونوا في اللقاء لها طحينا
يكون ثفالها شرقي سلمى
ولهوتها قضاعة اجمعينا

او قول مهلهل بن ربيعة :

كانا غدوة وبني أبينا
بجنب عنيزة رحيا مدير

او كقول زهير بن ابي سلمى :

فتعركم عرك الرحى بثفالها
وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئم

وقد اخذت هذه الصورة مساحاتها في قصائد الشعراء وهم يتحدثون عن ثقلها وقوتها وشدتها وكيف يكون الخصم طحينا بعد ان تطبق عليه الرحى ، وكيف يسحق ويتناثر على ثفالها متساقطا من بين فجواتها ومتخذا من دروبها ملاذا يحاول التسلل منه والعبور من فتحاته . ولا بد ان تتعاظم هذه الصورة في ذهن الانسان وهو يتابع المراحل التي تتهاوى فيها دورات هذه الرحى واصواتها المتلاحقة وهي تطبق بكل قوتها على اللهوات المتوالية التي تغذى بها فوهة الرحى وكيف تتحول في جولة واحدة الى مسحوق متطاير او شذرات متناثرة(١).

وقد وجد الشعراء في صورة النار شاهدا آخر من شواهد الحرب ولونا متميزا من الوانها التي تغمر الاعداء فتحيلهم الى رماد ، ووجدوا في مفرداتها مجالا للاستخدام الموحي بالتاجيج والالهاب والتشبيب والتسعير والايقاد والاضرام وما ينتج

(١) تنظر نماذج هذه الصورة في كتاب شعر الحرب لعلي الجندي / ١٤ ـ ١٥ .

عن ذلك من وهج وشرر ولهب . والنار في شواظها اللاهب وسعيرها المضطرم والتهامها ما يقدم اليها من وقود جزل صورة مرعبة ، وفم لا ينهى شرهه، وحفرة لا تملأ اشداقها ، واستمارة الشاعر لكل ما يحيط بها ويملأ زواياها تثير نوازع الخوف وتحفز عناصر الرعب وترهب قلوب المذعورين الذين يخشون دبيبها ، ويخافون سريانها ، ويتهيبون دخولها . وان الذي يبعثها ويحاول اثارتها يتحمل جنايتها ، وتقع عليه اعباء تاجيجها ، وهذا ما حمل قيس بن الخطيم على ان يقول :

وكنت امرءاً لا ابعث الحرب ظالما
فلما ابوا اشعلتها كل جانب

وكقوله في قصيدة اخرى :

ان بني الاوس حين تستعر الـ
حرب لكالنار تاكل الحطبا

ويوغل عامر بن الطفيل في هذه الاوصاف حين يقول :

وانا ابن حرب لا ازال اشبها
سعرا واوقدها اذا لم توقد

اما لقيط فيجعل شهاب الحرب علامة من علامات الانذار وسطوع لهيبها اشارة من اشاراته وهو يحذر قومه من غزو فارسي تعده قوى الغدر فيقول :

مالي اراكم نياما في بلهنية
وقد ترون شهاب الحرب قد سطعا

وكثيرا ما كانت تقترن بهذه الصور صورة الانسان الذي يقود المعركة ويستعد لنتائجها المتوقعة ويهيء لوازمها وادواتها وهو في كل حالة من حالاتها يجد لها قرينة تتفق مع شدتها ، وتتوافق مع حالتها وكثيرا ما كانت صورة الناقة وهي تلقح ثم تلد من الصور القريبة التي وجدوا وجه الشبه فيها واضحا ، لانها عندما تلقح تكون مجبلة وكذلك الحرب التي تلقح فتكبر الاخطار وتزداد المصائب وتتعاظم الفواجع وان ولادتها تتمخض عن ويلات ومآسي والآم وهموم وكل ما يعود على الذين اثاروها بالدمار والخراب والانهيار وان غلتها ونتيجتها لا تسر وانما عطاؤها هو كل ما تكرهون ، وان نتاجها هو كل ما يبعث في نفوسكم السام والملل والضجر وان وطأتها وشدتها وقسوتها ستكون ثقيلة وسيتحمل اولئك الذين دفعتهم

الاحقاد الى مباشرتها كل النتائج المترتبة عليها ، وسيقعون في دائرة اوزارها التي لا ترحم ..

وما الحرب الا ما علمتم وذقتم
وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
وتضر اذا ضريتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحى بثفالها
وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئيم
فتنتج لكم غلمان اشام كلهم
كاحمر عاد ثم ترضع فتفطم

وتتوزع صور الحرب بين الاشكال المستهجنة الاخرى التي تثير الاشمئزاز وتترك مرارة الاثر وتؤدي الى الطعم المستوخم ، وبين الحيوانات التي تكشر عن نابها ، وتلقف ما تراه وتبتلع ما يقدم لها. وهي في غالبيتها صور لا يجد فيها الشاعر الا الشؤم ولا يتوقع منها الا الشر ولا يحس عند مجابهتها الا الشراسة والوحشية وكانهم كانوا يرومون من خلال كل هذه الصور استهجانها ودفع الناس عن الوقوع بها ووضع الداعين لها في مواضع النقد وحصرهم في دائرة الضوء التي تظل

اللعنات تصب عليهم جراء ما اقترفت ايديهم بحق قبائلهم وشعوبهم بسبب دفعهم الى الهاوية والحاق الضرر بهم ، وفي كل محاولة من محاولات الشعراء كانوا يهيئون لصورة البطل الذي بقيت ملامحه ترتسم في كثير من المفاخر ، وظلت دلالات قيمه تتوارد في كل اسلوب من اساليب الحياة ، وتدخل في كل مجال من مجالات تقويم الاعمال الانسانية من أجل ان تبقى هذه الصورة الشامخة حية في ذات الامة ، وكما بقي معنى الحرص على استمرار وجود البطل صورة من صور البقاء والخلود فقد بقي هذا المعنى نموذجا في قصائد الشعراء لانه يمثل زاوية اخرى من زوايا ذلك الاستمرار ، واساسا من اسس الحفاظ على دلالة البطولة في التكوين القبلي والقومي ، وفلسفة التضحية التي كان يقدمها الفرسان كانت تجسيدا حيا لمفهوم القدرة على امتلاك ناصية المرحلة البطولية التي كانت تعيشها الامة في تلك المرحلة وهي تجسيد لحيوية الامة ، وادراك لاستمرار تحركها الدائم من أجل تحقيق الذات ، ومن هنا كانت اعمالهم تمثل النضال الدائب والممارسة الفعلية لما تعانيه الامة في ذاتها من اجل استمرارية وجودها وانتزاع كل الاشكال الضعيفة والسائبة والمتخاذلة التي كانت تلوح في بعض المواقف .

لقد حاول هؤلاء الفرسان ترسيخ مفاهيم البطولة في مقارعة الخصم ، وتجاوز المواقف الضعيفة الى المواقف الحاسمة مهما كلفتهم من تضحيات ، لانهم كانوا يعلمون ان الحفاظ على الوجود والدفاع من اجل تثبيت المفاهيم تحتم عليهم ان يتخذوا هذه المواقف . ومن هنا كانت صور الهزيمة والفرار والبخل والامتناع عن تلبية نداء المحتاج ، والهجاء بكل اشكال الصور المخيفة في المجتمع تعد من الصور التي يانفون ان يوصفوا بها لانها تحمل الذل وتطبع اصحابها بطابع المهانة وتصمهم بوصمة العار ، لانهم يعلمون ان وصمة الهجاء سوف تلحق بهم لاجيال طويلة ، وسوف تظل اجيالهم تعاني منها ، وتتاثر من اسبابها ، وتتحمل من تبعاتها ، وهم يشعرون ايضا ان تثبيت خصائص المجتمع وخصاله الاصيلة تتنافى مع هذا الجانب الذي لم يترك في بناء المجتمع الا قيما هزيلة ، وخصائص مرذولة ، فالحياة في اعرافهم وممارساتهم كانت واضحة تجلت فيها كل مظاهر تمجيد القوة ، لانها السبيل الذي يرسم طريق العز ، والصورة التي تؤكد الوجود والذات ، ولانهم ادركوا ان الضعف مظهر الانحلال وطريق الفناء وسبيل الاستلام والضياع ، لقد كان المفهوم الانساني الذي تمثله الامة امتدادا لبطولة تاريخية

عريقة ، توطدت مفاهيمها في نفوس الاجيال وتواصلت حقيقتها في السلوك القتالي المستمر الذي ظل يلح على ابراز هذا الجانب ويؤكد من خلال الممارسة الدائبة التي كانت تتبنى الذات العربية في كل صفة خيرة وخصلة كريمة ، وفضيلة محمودة ، وهي اطراف كانت تحدد الصورة المتكاملة للشخصية العربية ، وتحقق الاطار الانساني لتكونها المباشر ، لانها لم تقف عند حدود القوة ، ولم تستقر في دائرة القسوة . او تهوي في منزلق التجاوز اللاواعي ، وانما هي لوحة متكاملة تتداخل فيها الخصائص الانسانية البناءة ، وتتشابك في تلوينها روائع التغاني والتضحيات ، وتزدهر في اعمالها خوالد المواقف الرائدة في كل مجال لانها صورة للانسان الفذ ، ونموذج للقدرة الموجهة المتمثلة في قول بشامة بن الغدير :

لو كان في الالف منا واحد ندعوا
من فارس خالهم اياه يعنونا

او قول طرفة :

اذا القوم قالوا من فتى خلت انني
عنيت فلم اكسل ولم اتبلد

أو قول الاخر :

اذا القوم قالوا من فتى لعظيمة
فما كلهم يدعى ولكنه الفتى

ان صورة الاستجابة وفق الشكل الذي حدده الشعراء يعكس لنا مفهوم الوفاء الذي ظلت الامة حريصة عليه ، ومفهوم الشجاعة والمروءة الذي ظلت تتحدى به الموت ، وتتعامل بموجبه مع كل الاحداث ، وتستهين بكل النوازع التي تحاول الاستحواذ عليها رغبات الحياة الضائعة ، وتتقدم بكل جراة وشجاعة لتحمل راية الاقدام بلا تردد ، وتنشر صوت الحقيقة بلا تخوف ، لانها لم تجد لها حياة افضل من التقدم ، ولم تجد لها عيشا كما يكون في الاقدام ، ولان الاحدوثة الجميلة ، والنجم عند الناس في الاهداف الحميدة ، انما يكون بالتقدم لا بالتاخر وبالافتخار لا بالانحراف ، وعندها يكون العمل اخلد ، والذكر ابقى ، وقد استطاعت هذه الخصائص المتقاربة ان تطبع تاريخ الامة بطابع الميل الانساني والتعامل الواعي لكل الدواخل الاصيلة التي ظلت تتنامى في نزعات الابناء ، وتتضح في تعاملهم الحضاري من خلال تجاربهم مع الشعرب ، فاستطاعت ان تشكل اتجاها حضاريا متميزا ، وصورة بشرية رائدة تحمل عناصر الخير ، وتحدد

اواصر القيم الاصيلة ، وترمز الى الشخصية الواحدة المتماسكة التي تؤمن باهدافها في الحياة ، وتدرك رسالتها في المجال التكويني للانسان ، لان هذه النفس اعتمدت الثقة المطلقة في العمل ، واسترشدت بالشخصية المتكاملة التي ظلت صورتها ماثلة في الذهن من خلال شخصية البطل الحقيقي في كل مجتمع مهما كانت حدوده وتوطدت ابعادها في ظلال المجتمع الكبير الذي ظل يقدس الاعمال الخالدة ، ويمجد الصفات النبيلة ، ويوحي لابنائه عن طريق الممارسة بالتربية الحسية والعقلية والاجتماعية والاخلاقية ، فالتوجه نحو الاعداء في الحرب ، وعدم الاعراض عنهم درس تربوي في الحرب ، وتمرين في الممارسة الفعلية ، وتطبيق عملي لما يجب ان يكون عليه الفرد والثبات في الميدان ومواجهة الخصم ، والايمان المطلق بالحق في كل قضية مسالة واضحة ، وحالة متعارف عليها ، والشعور بوحدة المصير والاحساس بالدفاع عنها ، والالتزام بمضامينها ، دفاع عن الوجود ، وبذل من اجل البقاء ، وصورة من صور التضامن الحياتي ، فالمظهر الجماعي لهذه الخصال فرض على البطل الالتزام به والدعوة الى تاكيده في كل جانب ، والاخذ به عند كل حالة ، والدعوة اليه في كل صورة .

غير محدود ، ويبذل من اجلها ما يحرص الاخرون على جمعه . فالبطولة صورة واضحة اللامح ، مجسدة الرؤية ، تتوفر فيها عناصر المروءة بكل قيمها من وفاء وحمية وكرم ونجدة وفصاحة وتضحية وجراة وكل الفضائل التي آمن بها المجتمع ودعا الى التمسك بها ؛ وهي انسانية لها اهدافها المرسومة ، تتمثل اطرافها في التعبير عن كل جانب من هذه الجوانب بما يستحق ، لانها تنبع من الوجود الحقيقي لهذا الانسان ، وتعيش في اعماقه وتسبح فوق ارضه صورا من صور الحياة ، وتتخلل وجوده الاجتماعي قيما وتقاليد وتزهو في خوافقه سلوكا فذا ، وانسانية تستمد مظاهرها من الواقع البشري الذي بقيت اثاره تستقيم في الفهم ، وتنطبق مع الحقيقة ، وتنبسط مع كل عمل مقترن بالمعاني السامية التي لازمت دلالات الشجاعة لتتم الصورة الكاملة ، ويتضح النموذج المطلوب فالبطل الذي يقارع الاعداء يدافع عن كيان القبيلة والامة ، ويحمي شرفها ، ويصون حماها ، ويذب عن ارضها ، ويخوض المعارك بجراة من اجل ايقاف كل تجاوز عليها يقري الجائع ، ويفك العاني ، ويطعم المحتاج ويدفع الاذى عن كل مستجير ويدفع الظلم عن كل انسان لا يخون عهدا ، ولا يقطع وصلا ، ولا ينكث وعدا . ان هذا المفهوم

ولم تقتصر مظاهر البطولة في الشعر الجاهلي على جانب الشجاعة او التضحية ، وانما امتدت الى الصفات الاخلاقية الاخرى التي تتصل بالكرم والوفاء ، وتمتد الى الجراة والاقدام ، لان هذه الخصائص تمثل القدرة الذاتية التي تضفي على تلك الجوانب صفة الاكتمال . وتدخلها في اطار التحسس الاجتماعي . وتترك اثارها البارزة في كثير من الاعمال الجليلة لانها عناصر تبرز ظاهرة البطولة، وتنمي قدرات الانسان للاحتفاظ بها وتكميل اطرافها ، وتوضيح دلالتها ، ويعد حاتم الطائي من النماذج الشعرية التي التفتت بشكل واضح الى تاكيد صفة الكرم ، وتثبيت تقاليده والدفاع عن فلسفته ؛ ولا نستغرب هذه الحقيقة اذا علمنا ان حاتما يمثل التركيز الصادق لطبيعة مظاهره والفكرة الواعية لابعادها الاجتماعية ، والقدرة المستوعبة ، لما تتركه في النفوس ، وتحمله من خصائص ، ولانها من الصفات التي ظل المجتمع حريصا على تكريمها وملتزما بادائها . لانها تعبير عن ذاته ، وصورة من صور وجوده ، ورابطة اجتماعية وثيقة من روابطه . وقد اصبح الكرم عند هذا الشاعر خصيصة متميزة خبرها الشاعر خبرة واعية ، وهضمها هضما حسيا ، واستطاع ان يجعله فلسفة يدافع عنها وفق منطق معقول ، ويلتزم بها التزاما

الواسع يشكل الصورة الكبيرة التي كانت تتلون زواياها بالاعمال الخالدة ، وتتميز بوارقها بالاشراق واللمعان ، وتتجلى روعتها عند الممارسة الفعلية ، لتاخذ حجمها في الضمير العربي ، وجدانا قوميا وصورة انسانية ، وصوتا يستجيب لطبيعة المجتمع وقدرة تحقق الذات ، ولسانا يمتلك كل اسباب التعبير .

ان هذه المحاولة ليست عرضا لشعر الحرب ولا كشفا عن صور البطولة ، او مرورا باعمال الرجال الذين صنعوا الامجاد وحققوا المآثر ، او وقوفا عند الشعراء الذين وظفوا شعرهم لمتابعة الفرسان وهم يخوضون المعارك او يناجون السلاح او يسجلون البطولات الفذة ، ولكنها محاولة لوضع بعض الملامح للشعر الحربي الذي عبر عنه الشعراء، وهو يرسم الطموح الشرعي لآمال الامة ، والاهداف الكبيرة التي كانت تسعى اليها لتحقيق الاهداف الكبيرة بعد ان تعرضت للتحديات الحاسمة وهي تستهدف وجودها ، فوقفت شامخة وهي تستجلي مثلها ، وتختار النموذج الذي ينطلق حيا في كل نفس ، ومخلصا في كل ضمير ، رائدة في كل مسيرة ليظل صدى رسالتها نبعا يرفد الشعر العربي بكل ما يغني قدرته ويديم وجوده ويحقق التزامه ..

ولابد ان تتخذ اشكال المقاومة العربية بعد بقايا الاحتلال في الجزيرة اشكالا من المناهضة ، وصورا من الكفاح الذي تجلى في بعض الايام ، وتمثل في انهاء هذا الاحتلال عندما توجه الشعب من مختلف الاصقاع ، وتعدد الجهات والاطراف ، ليلتقي عند ارض العراق ويجعلها ممرا لجيوشه التي كانت تتلهف لاستعادة الارض وتحرير الانسان، وتحقيق اجتماع الشمل بعد ان انفرط باقتطاع تلك الاصقاع .

ان هذا الاعداد القومي والديني الذي تمثل في الحملة الكبيرة ، والتضحية النادرة والاستشهاد الرائع قد مهد له وبشكل واضح (يوم ذي قار) الذي برزت احداله بصورة جلية ، واخذ مجاله من خلال التحرك البشري الواسع في الدعوة الى الوحدة ومجابهة الرفض والتحدي الاجنبي فوق ارض الجزيرة فكان نقطة تحول في تغيير مجرى الاحداث وتوجه قومي حاد نحو قدرة الانتماء ، والتي بدأت القبائل العربية تجد نفسها ملزمة بالدفاع عنها ، والتضحية من اجل استمرار وجودها، واذا حاولنا استجلاء مظاهر الوحدة ، والوقوف عند اشكال النضال الذي عرفته الجزيرة فان الايام التي سبقت (ذي قار) كانت تمهيدا نضاليا ،واستمرارا للمقاومة

التي تجلت في يوم (السلان) و (الصفقة) و (يوم الفرات) و (يوم سفوان) و (ايام الفجار) التي كانت تمثل هذه الدعوة ، وتؤكد جانب المجابهة الذي عرفته القبائل العربية وهي تعبر عن نفسها تجاه المواقف التي حاولت قوى الاستعباد ان تفرضها عليها . وقد استطاع الشعر في كل هذه الايام أن يجسد عمق هذا الحس القومي الذي كانت تتعالى اصواته من خلال الرفض العربي لكل انواع الوصاية ، وفي ابيات لبيد التي يفتخر بايام قومه اشارة صريحة لهذا اليوم . ووقفة قومية اصيلة لما كان يدور في نفوس ابناء الامة وهم يجابهون الخصم ويتصدون لمحاولة الاستيطان حيث يقول(١) :

اني امرؤ منعت ارومة عامر
ضيمي وقد حلفت عليَّ خصوم
جهدوا العداوة كلها فاصدها
عني مناكب عزها معلوم
منها حوي والذهاب وقبله
يوم ببرقة رحرحان كريم

(١) لبيد . الديوان / ١٣٢ .

وغداة قاع القرنتين اتيتهم
رهوا يلوح خلالها التسويم
بكتائب تردي تعود كبشها
نطح الكباش كانهن نجوم
نمضي بها حتى تصيب عدونا
ونرد منها غائم وكليم

وكان الشعراء يعلمون ان التماسك بين ابناء القوم والاعتزاز بما يقدمونه من اعمال يمثل الخطوة الاولى التي تضع القبيلة على طريق الانتصار ، وتوحد بين الابناء الذين يصنعون المجد التاريخي للامة ويحققون السبل القويمة لمسيرتها وهذا ما كان يدفعهم الى الحديث عن ذلك ، بصدق والوقوف عند هذا الجانب بامعان ، وان الاحاسيس التي كانت تساورهم وهم يقدمون هذه الأحاديث كانت تحمل الوجدان الصادق والحس القومي الواضح الذي تمتزج فيه الذات الفردية بالذات الجماعية ، وتنتهي في معانيه كل الدلالات التي يمكن ان تطغى في المواقف الاخرى ، لان الاحساس بالجماعة كان الصورة المطلقة للمجتمع العربي والاندفاع وراء تحقيق المستقبل الذي تطمح اليه القبيلة في نطاق القوم وهو يرسم الصورة التي ظل

الشاعر يدافع عنها في كل موقع ، ويقدم من اجلها التضحيات الجسيمة . وكان صوت ربيعة بن مقروم الذي تحدث عن قومه صورة رائدة في هذا المجال حيث يقول(٢) :

وقومي فان انت كذبتني
بقولي فاسال بقومي عليما
البنوا الذين اذا ازمة
الحت على الناس تنفي الحلوما
يهينون في الحق اموالهم
اذا اللزبات التحين المسيما
طوال الرماح غداة الصباح
ذوو نجدة يمنعون الحريما
بنو الحرب يوما اذا استلأموا
حسبتهم في الحديد القروما

وتاخذ بعض الايام جانبا اخر من جوانب التحدي عندما تتفق القبائل العربية على مهاجمة قافلة كسرى فتاخذ ما كان معها وتقتسمه باعتباره حقا من حقوقها وثروة من ارضها ، وهو احساس

(٢) المفضل الضبي . المفضليات ١٨١/١ .

باسترداد الثروة وشعور بتحشيد القبائل من اجل الدفاع عن هذه الثروة . وتاكيد لمبدأ القدرة على مقاومة الغزاة والتصدي لقوافلهم ، الى جانب كونه نموذجا من نماذج الاحساس بالوحدة والشعور بالترابط عن المصلحة المشتركة والمصير الموحد عندما بدات القبائل تتجمع وتتوحد لتقاتل اقواما غرباء احتلوا الارض ، واستعبدوا الانسان ، واستغلوا الثروة(١) .

لقد ادرك الظل الاجنبي منذ اكثر من الف وخمسمائة سنة ارادة الرفض العربي ، وقد استخدم لايقافه ، والحد منه بعض اتباعه ، وقد حاول هؤلاء الاتباع سلوك مسالك شتى لفرض هذا الظل ، وتثبيت اقدامه ، ولكنه كان يجابه بقوة حازمة ، وعنف متصل وكانت الردود الرافضة تستمد قوتها من قوة الامة ، وعلوا ابائها وقدرتها على المقاومة ومن هنا كانت اعمال الاتباع الذين استخدموا للحد من هذا التحدي تتم بطابع القوة ، وتاخذ شكل الارهاب الدموي في بعض الاحيان ، محاولين بذلك ايقاف المد العربي المتطلع

(١) ينظر العقد الفريد ٢٢٤/٥ والاغاني ٢٣٧/١٧ (دار الثقافة) ومعجم البلدان ٣٦٨/١ وابن الاثير ٢٧٥/١ وايام العرب للدكتور عادل جاسم البياتي / ٢١٦ ، ٢٢٢ .

نحو مجابهة الاحتلال ، وايقاف جبروته . وقد تجسدت تلك المحاولات في المجزرة الرهيبة التي دبرتها بعض صنائع المحتلين من رجال القبائل المغرر بهم بالتعاون مع كسرى ، فقد حبس كسرى عن القبائل التي اشتركت في استرداد الثروة وهاجمت قافلة الميرة في سنة مجدبة ثم ارسل الى هوذة فاتاه، فقال ، اين هؤلاء فاشغني منهم واشتف وارسل معه الفا من الاساورة بقيادة رجل يقال له المكعبر(١) فساروا حتى نزلوا المشقر ثم نودي : ان كسرى قد بلغه الذي اصابكم في هذه السنة ، وقد امر لكم بميرة ، فتعالوا فامتاروا . فانصب عليهم الناس ، وكان اعظم من اتاهم بنو سعد ، فجعلوا اذا جاءوا الى باب المشقر ادخلوا رجلا رجلا ، حتى يذهب الى المكعبر فتضرب عنقه ، وقد وضع سلاحه قبل ان يدخل فاذا مر رجل من بني تميم بينه وبين هوذة اخاء ، او رجل يرجوه ، قال للمكعبر : هذا من قومي فيخليه له ، فنظر خيبري بن عبادة الى قومه يدخلون ولا يخرجون ، فقال ويلكم : اين عقولكم ، فوالله ما بعد السلب الا القتل ، وتناول سيفا ، وضرب سلسلة كانت على باب المشقر

(١) كان المكعبر عامل كسرى على البحرين ، وسمي بذلك لكبرته الرؤوس ولانه كان يقطع الايدي والارجل .

فقطعها وقطع يد رجل كان واقفا بجانبها ، فانفتح الباب فاذا الناس يقتلون ، فثارت بنو تميم وهاجموا الحصن ، وقتلوا الحرس ، وانزلوا بجيش كسرى الهزيمة فقتل من الاساورة من قتل ، وانهزم ولم ينفر العرب لهوذة بن علي خيانته بعد ان رشاه كسرى بان وضع التاج على راسه ، فكان يقال له : هوذة المتوج ، تمجده الفرس كلما مرت به ، وظل اسمه رمزا من رموز الخيانة ، وصورة من صور الاستسلام ، ونموذجا من نماذج التهاون في القضايا المصيرية التي تمس وجود الامة ويرتبط بها مصيرها .

ان مواقف التحدي التي كانت تقفها الامة ، ومواقف الرفض التي كانت ترسم صورة المجد النضالي كانت تتحدد من خلال النصوص المتوفرة وان هذه النصوص كانت تدور في اطار الدعوة الى توحيد القبائل ومساندة المقاومة في كل اشكالها واتخاذ المواقف التي تجسد المسؤولية القومية والانسانية ومجابهة القوى التي تحاول السيطرة او الاستحواذ ، وهي مفاهيم كانت تتحدد من خلال المواقف الثابتة التي عبر بها الشعراء عن الحس القومي الذي كان ... ويستثير دوافع التاكيد على القيم التي ترتبط بالمبدأ ، ولم تكن توقعات

الشعراء بعيدة عن التحليل والتعليل الذي يضع المسائل موضع التقويم السليم ، وتحديد النتائج التي تنتهي اليها مواقف الاستسلام الاولية ، والعواقب الوخيمة التي ستتركها على مستقبل الامة وقد لمعت اسماء مجموعة من شعراء العصر الذي سبق العصر الاسلامي في سماء الادب العربي منها جابر بن حني التغلبي والمرقش الاكبر ، ويزيد بن الخذاق ، والممزق العبدي ، والحارث بن ظالم المري ، وطرفة بن العبد وزهير بن ابي سلمى ولبيد بن ربيعة والنابغة الذبياني ولقيط بن يعمر الايادي والاعشى ، وهي اسماء تؤكد قاعدة الشعراء الذين كانوا يخوضون المعركة من خلال ادبهم ، ويسجلون طموح الامة من ثنايا وفائهم لمبدا التضحية الذي التزموا به ، ويرسمون للاجيال المستقبل الواضح ، ويحددون معالم الطريق الانساني وحقها في الحياة ، فقد ظلت قصيدة لقيط ابن يعمر التي مطلعها :

يا دار عمرة من محتلها الجرعا
هاجت لي الهم والاحزان والوجعا

صرخة من صرخات الوفاء ، ورمزا من رموز التحرير ، وبقيت معانيها الصادقة تعبر القرون ،

وتجتاز الاجيال حية تحمل قدرة الوفاء ، لامعة تنشر قيم الاخلاص والتضحية لانها نابعة من ضمير الامة التي انجبت هذا الشاعر وانجبت غيره من الشعراء الذين كانت لهم مواقفهم الصريحة ، وصادرة عن نوازع القدرة النضالية التي ظلت امالها تثير في نفوس ابنائها عوامل الاقتدار ، ودوافع الرفض ، ونزعات التحدي ، وقد حاول هذا الشاعر ان يفتتح هذه القصيدة بالوقوف على اطلال (عمرة) التي اهاجت له الهموم والاحزان وهو لم يكن موقفا عفويا اقتضته طبيعة البناء الفني ، او فرضته لوازم الاداء ، او حققته نزعة المخاطبة الجامدة ، وانما وقوف يمثل الالتصاق الحيوي بالارض ، والترابط المصيري بين الفرد والوطن المكاني ، والاندماج الاصيل الذي يشد الانسان بموطنه الذي عاش فوق ارضه وقدم من اجله التضحيات . ومن الطبيعي ان يتخذ الشاعر من ذلك مدخلا الى الموضوع الذي كان ياخذ بتلابيب الشاعر منذ البدايات الاولى بعد ان تجلى حسا تونيا ، واستثارة مصيرية ، ودوافع انسانية ، فدار عمرة التي وقف عندها هي الارض التي يعتز بها ، لانها تحمل ذكريات الوجود الاول ، وتحمل احلام الايام التي شهدت نشاته ونشاة اترابه من

ابناء قومه لان الانسان الذي حاول ان يتحدث معه لينقل حسه هو الانسان الذي نذر له نفسه وتحمل من اجله التضحية الخالدة . وقد ظلت هذه المعاني هي المحور الذي دارت عليه الابيات ، وكانت صرخة الهم والحزن والاوجاع هي المسحة البارزة منذ البيت الاول على الرغم من التزام الشاعر بالبداية التقليدية التي حاول من خلالها الربط بين المعنى والفكرة ، والرغبة والانتماء والاحساس والمسؤولية وقد جسد الصورة برمز المراة لانها صورة الاحساس ، ونموذج الخلود ، وصوت الضمير الانساني ، وقد اتخذ منها الشاعر جسرا ليتحدث من خلاله الى الراكب ـ اي راكب ـ يقطع الجزيرة على عجل ـ دون تمهل ـ ليدرك قومه قبل ان تصل اليهم طلائع كسرى ليخبرهم بوصيته ، ويبلغهم الامانة التي حرص على نقلها ، وقد حاول الشاعر ان يؤكد عنصر السرعة من خلال الفاظه ليبدد موقف المباغتة الذي حاول كسرى ان يستخدمه لينقض على اياد وقد تجلت اللامح الوجدانية والذاتية التي كانت تساوره وهو يتطلع الى الجزيرة ، الارض التي شهدت ميلاد قومه ، وعاشت تطلع وجوده وتشهد الان انتشار اياد برجالها واطفالها ونسائها ومتاعها وترقب نعمهم ،

وتحدب عليهم ، ويتطلع اليها والحرقة تؤذيه ، وهو يرقب الصورة التي ستكون عليها بعد ان تدوسها اقدام الغزاة وتستباح فوق ترابها دماء الاباء والابناء(١) .

لقد كان صوت الشاعر ايذانا بالاحساس الذاتي الذي كان يعتمل في النفوس ، ويتعالى في كل قلب من اجل الحفاظ على وحدة القوم والحرص على تراب الارض الذي ظل حمى مصونا .

(١) انظر القصيدة في ديوان لقيط بن يعمر الايادي من ٢٧ ـ ٥١ . بتحقيق الدكتور خليل العطية .

مكتبتنا العربية

صدر من الموسوعة الصغيرة

١ ـ العرب والحضارة الاوربية ، د. فيصل السامر .
٢ ـ فلسفة الفيزياء ، د. محمد عبداللطيف مطلب .
٣ ـ الحقيقة الاشتراكية لحزب البعث العربي الاشتراكي عزيز السيد جاسم .
٤ ـ قضايا المسرح المعاصر ، سامي خشبة .
٥ ـ الصناعات البتروكيمياوية ومستقبل النفط العربي . محمد ازهر السماك .
٦ ـ الثورة والديمقراطية ، صباح سلمان .
٧ ـ دانتي ومصادره العربية والاسلامية ، عبدالمطلب صالح .
٨ ـ الطب عند العرب ، د. عبداللطيف البدري .
٩ ـ انغولا .. الثورة وابعادها الافريقية ، حلمي شعراوي .
١٠ـ معالجات تخطيطية للظاهرة التحول الحضري ، د. حيدر كمونة .
١١ـ مصادر الطاقة ، د. سلمان رشيد سلمان .
١٢ـ التراث كمصدر في نظرية المعرفة وابداع في الشعر العربي الحديث ، طراد الكبيسي .
١٣ـ التقدم العلمي والتكنولوجي ومضامينه الاجتماعية ، د. نوري جعفر .
١٤ـ الثقافة والتنظيمات الشعبية ، عبدالغني عبدالغفور .

١٥ـ العوامل المحفزة لنمو الدخل القومي ، د. كاظم حبيب
١٦ـ فن كتابة الفصوصة ترجمة : كاظم سعدالدين .
١٧ـ الاعلام والاعلام المضاد ، صاحب حسين .
١٨ـ استثمار المواد الكيمياوية والعضوية المولة للبيئة ، طارق شكر محمود .
١٩ـ مساهمة العرب في دراسة اللغات السامية ، د. هاشم الطعان .
٢٠ـ الانسان اخر المعلومات العلمية عنه ، ترجمة : كامران قره داغي .
٢١ـ الشعر في المدارس ترجمة : ياسين طه حافظ .
٢٢ـ من عصر البخار الى عصر الليزر ، د. اسامة نعمان .
٢٣ـ الاتصال والتغير الثقافي ، هادي نعمان الهيتي .
٢٤ـ المدخل الى الفكر الفلسفي عند العرب ، د. جعفر آل ياسين .
٢٥ـ الصهيونية ليست حركة قومية ، بديعة امين .
٢٦ـ الدفاع المدني الشعبي ، صالح مهدي عماش .
٢٧ـ النسبية من نيوتن الى انشتاين ، د. طالب ناهي الخلاجي
٢٨ـ فن التمثيل عند العرب ، د. محمد حسين الاعرجي .
٢٩ـ الموسيقى الالكترونية ، د. علي الشوك .
٣٠ـ دراسة في التخطيط الاقتصادي ، د. يحيى غني النجار .
٣١ـ الرواية العربية والحضارة الاوربية، شجاع مسلم العاني.
٣٢ـ نقد الفكر البرجوازي المعاصر ، ترجمة : يوسف عبدالمسيح ثروة .

٣٣ـ الطاقة وآفاقها المستقبلية ، د. عادل كمال جميل .
٣٤ـ فن الترجمة ، ترجمة د. حياة شرارة .
٣٥ـ صورة الكون ، د. محمد عبداللطيف مطلب .
٣٦ـ مدارس النقد الادبي الفرنسي المعاصر . نهاد التكرلي .
٣٧ـ النهضة ، د. كمال مظهر احمد .
٣٨ـ الحرب النفسية ، د. فخري الدباغ .
٣٩ـ الانسان والبيئة ، ترجمة عصام عبداللطيف احمد .
٤٠ـ في علم التراث الشعبي ، لطفي الخوري .
٤١ـ مساهمة العرب في علوم الحياة ، عادل محمد علي الشيخ حسين .
٤٢ـ العنصرية الصهيونية ، د. عبدالوهاب المسيري .
٤٣ـ المصادر الاساسية للفنان التشكيلي المعاصر في العراق ، عادل كامل .
٤٤ـ سايكلوجية الطفل في مرحلة الروضة ، مدحت عبدالرزاق عبدالنبي .
٤٥ـ لمحات موجزة من تاريخ نضال الشعب العراقي ، صادق حسن السوداني .
٤٦ـ التكنولوجيا المعاصرة ، د. طه نايف ذياب و د. سامي مظلوم صالح .
٤٧ـ نظرية النظم . تاريخ وتطور . د. حاتم السامن .
٤٨ـ الطفل هذا الكائن العجيب ، د. ضياء الدين ابو الحب
٤٩ـ في المسرح الشعري ، عبدالستار جواد .
٥٠ـ الكيمياء عند العرب ، د. جابر الشكري .

٥١ـ نزعات انسانية في موسيقى بتهوفن ، فائم الدباغ .
٥٢ـ نظرات في علم الوراثة ، د. عبدالاله صادق .
٥٣ـ مقدمة في تاريخ العربية ، د. ابراهيم السامرائي .
٥٤ـ الاسطورة ، د. نبيلة ابراهيم .
٥٥ـ برج بابل ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا .
٥٦ـ التاريخ الاقتصادي للشرق الاوسط ، ترجمة وتعريب عادل ابراهيم يعقوب .
٥٧ـ الرواية والمكان ، ياسين النصير .
٥٨ـ التخطيط العاصر للمدن ، د. باسم رؤوف .
٥٩ـ هذا هو الفارابي ، مهدي صالح .
٦٠ـ اعلام في النحو العربي ، د. مهدي المخزومي .
٦١ـ حضارة الرقم الطينية وسياسة التربية والتعليم في العراق القديم ، ترجمة : يوسف عبدالمسيح ثروة .
٦٢ـ نظرات جديدة في مستقبل العمل الاداري ـ سعد البزاز.
٦٣ـ في صحة المجتمع . د. عبدالحسين بيرم .
٦٤ـ الرياضيات عند العرب . د. احمد نصيف الجنابي .
٦٥ـ الابعاد القومية لثورة مايس ١٩٤١ في العراق د. محمد مظفر الادهمي .
٦٦ـ جدلية ابي تمام د. عبدالكريم اليافي .
٦٧ـ المدخل لتاريخ العمارة العباسية وتطورها . شريف يوسف
٦٨ـ الطب البيطري عند العرب . د. طه حامد الشبيب .
٦٩ـ جماليات الفنون . د. كمال السيد .

٧٠ـ العلاج النفسي ، انواعه ، اساليبه ، مدارسه . د. فخري الدباغ .
٧١ـ ملامح من الشعر القصصي في الادب العربي د. نوري حمودي القيسي .
٧٢ـ تاريخية المعرفة منذ الاغريق حتى ابن رشد .
٧٣ـ التزامن بين الحروب الصليبية والف ليلة وليلة عبدالغني الملاح .
٧٤ـ الدماغ البشري د. طارق ابراهيم حمدي .
٧٥ـ آراء في الكتابة والعمل الصحفي . وائل العاني .
٧٦ـ تيارات حديثة في الادب الالماني . د. مصطفى عبدالحميد
٧٧ـ هنا بُدأ التاريخ . تاليف س. ن كريمر ، ترجمة : ناجية مراني .
٧٨ـ ظهور الرواية الانجليزية . ترجمة د. يوئيل يوسف عزيز .
٧٩ـ الضواء على حركة الشباب في القطر العراقي ، شامل عبدالقادر .
٨٠ـ المعجم العربي د. حسين نصار .
٨١ـ بين القادسية الاولى والقادسية صدام حسين . مهدي حسين البصري .
٨٢ـ ادارة الانتاجية . تاليف : جي. اي. فارادي ، ترجمة : ابراهيم عبدالله جرجيس . سلمان يعقوب العبيدي .
٨٣ـ الانسان في ادب وادي الرافدين . د. يوسف حبي .
٨٤ـ الثورة والسياسة الدولية . جمال عبدالرزاق العبيدي.
٨٥ـ تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي . د. عبدالجبار ناجي .
٨٦ـ اثر البيئة في الحكاية الشعبية العراقية . د. عمر الطالب .

مكتبتنا العربية

Little Encyclopedia
A Fortnightly Cultural Series dealing with various branches of Science, Art, and Literature
Issued by Dar — Al-Jahidh
Al-Khulafä Street — Baghdad

Editor-in-Chief
Musa Kraidi

المحتـــويات

١ ــ تمهيـــد ٣
٢ ــ شعر الحرب عند العرب .. ٧

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ــ بغـداد
رقم (١٦٣) لسنة ١٩٨١

دار الحرية للطباعة \ بغداد
١٤٠٠ هـ ــ ١٩٨٠ م